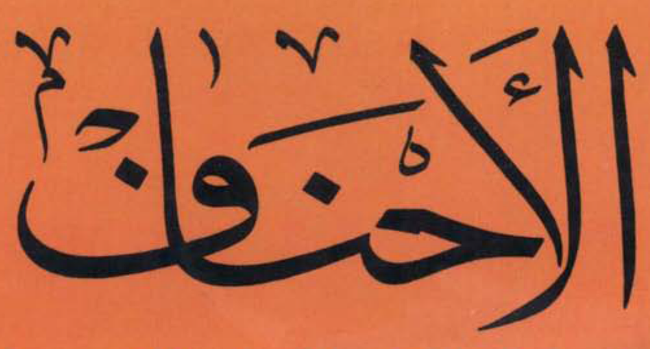
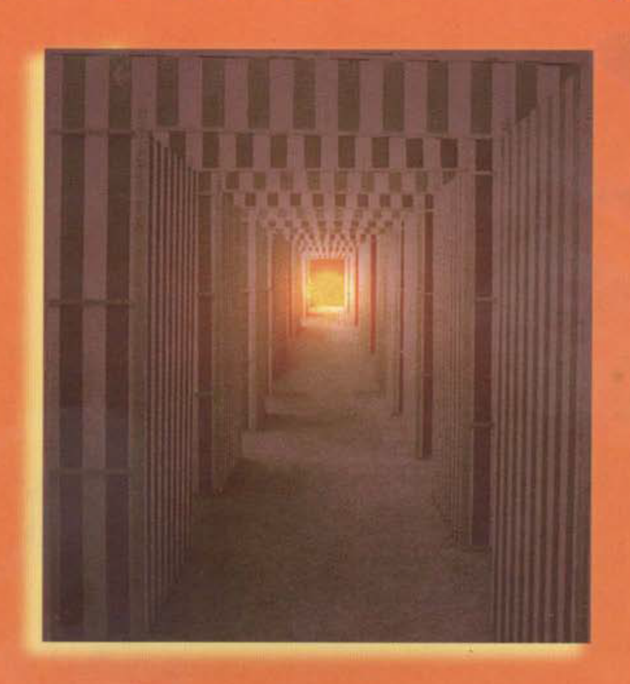


الأحناف

دراسة في الفكر الديني التوحيدي
في المنطقة العربية قبل الإسلام



عماد الصبّاغ

دار الحصاد

• الأحناف

• عماد صباغ

• دار الحصاد للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - برامكة

هاتف / فاكس : 2126326

ص . ب : 4490

• الطبعة الأولى : 1998

• تنضيد وإخراج القسم الفني في دار الحصاد

عماد صبّاغ

الأحناف

دراسة في الفكر الديني التوحيدي
في المنطقة العربية قبل الإسلام

المحتويات

بداية

لدى تأمل اللوحة الدينية ـ الاجتماعيّة، في شبه الجزيرة العربية في القرن السادس للميلاد، ومن خلال التنوع الكبير للمذاهب الدينية في المنطقة آنذاك، نستطيع أن نلحظ بوضوح، **تياراً** توحيدياً خالصاً، بعيداً كل البعد عن عبادة الأرباب والتقرب للأصنام، **تيارٌ** لايزال محاطاً بالغموض، إنه تيار الحنفاء، أو أحناف الجاهليّة، الذين عدّهم بعض الباحثين المعاصرين بحق، الحلقة المفقودة في سياق تطور الفكر الديني العربي قبل الإسلام.

من هم الحنفاء؟ هل كان هؤلاء مجرّد أفراد موحدين بالله، يدعون إلى نبذ العبادات الجاهلية، والابتعاد عن الأصنام، مثلما يرى معظم المؤرخين، والباحثين؟

أم أنهم كانوا فرقة دينية لها طقوسها العباديّة، وعمقها التوحيدي الخاص، كتبها، وأنبياؤها؟

وهل الحنفاء فرقةٌ واحدةٌ؟ أم أكثر؟

وفي كل الحالات، ماهي المصادر الفكرية الدينية التي استقى منها هؤلاء عقائدهم وصاغوا طقوسهم؟

هل الحنفاء هم نصارى الجزيرةِ العربيّة؟

أم فرقة من فرقها اليهوديّة؟

أم أن هؤلاء، ليسوا من اليهود ولاالنصارى، وإنما كانوا تياراً دينياً وليداً

استقى معارفه من محيطه الغنيّ بالمذاهب والعبادات التوحيديّة، وصاغ مشروعه التوحيدي الخاص، الذي ينحو باتجاه استبدال التوحيد بالتعدد، على المستويين الديني والسياسي؟

إننا سنحاول الإجابة على هذه الأسئلة، معتمدين على القليل، الذي وَرَد عند الإخباريين في هذا الشأن، وعسى أن نستطيع النجاح في نظر القارئ الكريم.

الباب الأول

حنفاء ماقبل الميلاد

الفصل الأول

التوحيد في الشرق العربي القديم:

التوحيد المنزّه في العمق، وإشكالية التعدد الطقسيّ «التوحيد الرّبوبي»

عندما نقرأ نصوصاً دينية، دون أن نعرف سلفاً إلى أية حقبةٍ زمنية تنتمي، وفي أي مكان قد كتبت، نصوص مثل:

> «لقد خلق الله الكون، وخلق كل مايكون.. إنه خالق السموات والأرض والأعماق والمياه والجبال، لقد بسط الله السماوات وأسس الأرض، فما تخيله فؤاده يصير على الفور، وحين يكون قد تكلّم فإن كلمته تتحقق، وإنها تدوم إلى الأبد»(1)

> «إن الله هو الواحد الأبدي، إنه أبديّ غير محدود، وهو يدوم إلى أبد الدهر وقد دام طوال أزمان لاتحصى، وسوف يدوم طوال الأبدية كلها»(2)

> «إن الله واحدٌ ووحيد، وما من إله آخر معه، إن الله واحدٌ، وهو الذي خلق الأشياء طرّاً»(3).

عندما نقرأ مثل هذه النصوص بالتأكيد سوف نصاب بالدهشة بعد

ذلك، عندما نطّلع على مصدرها ونعلم أنها كتبت في مصر الفرعونية القديمة، التي كانت أربابها تُعدُّ بالألوف، لكن دهشتنا لن تغيّر في الأمر شيئاً، فالنصوص مأخوذة عن الابتهالات المصرية القديمة التي تعود إلى ماقبل الميلاد بأكثر من ألفي عام!

لكن.. كيف يمكن الجمع بين تلك النصوص وبين التنوع المذهل للأرباب المصريّة؟..

ألا يوجد خطأ ما في حقيقة النص الزمانية والمكانية؟

كيف يمكن التوفيق بين التوحيد الرفيع المنزه، وبين التماثيل العديدة والصور المنقوشة في معابد الأرباب التي كان يؤمّها المتعبدون حاملين نذورهم وتضرعاتهم؟..

إنّ الله سبحانه، الذي وصف في النصوص القديمة بأنه:

«الكائن المخبوء، وما من أحد استطاع أن يجد له مثيلاً، وهو خفيٌّ عن الآلهة والبشر، وهو مستورٌ عن مخلوقاته»[4]، هو الخالق الخفيّ الذي لايمكن أن تمثله رسوم أو تجسده تماثيل، وإذا كانت الأرباب دائمة الظهور في النقوش والمنحوتات، فهذا يعود إلى أنّها في الواقع، مخلوقةٌ، مثل عبادها، لحظة نطق الكلمة الإلهية:

> «جعل صوته مسموعاً، فجاء الآلهة إلى الكينونة، ألا أنه الخزاف المبدئي الذي أخرج الآلهة والبشر من بين يديه»[5].

لقد خُلق الكون.. بمادته.. وأربابه.. وحيواته جميعاً، عند نطق الكلمة، وعند ذلك فقد بدأ الزمان.. وتشكل المكان.. ووجدت الحياة.

إن فارقاً شاسعاً، يفصل (مبدأ الخلق)، الواحد، المطلق، عن الأرباب، هذا الفارق هو المسافة بين الخالق والمخلوق، بين الله والعبد، وهنا ليست هناك

أية فسحة للخلط وسوء الفهم، ليس هناك مجال لاستخدام مفردات مثل «الوثنية» التي دأب الشطر الأعظم من الباحثين، على إطلاقها في إطار حديثهم عن العمق العقيدي لديانات الشرق العربي القديم.. ولتوضيح كل ذلك، ينبغي لنا الحديث عن الماهية الحقيقية للأرباب:

بالنسبة لإنسان العصور القديمة، كانت ظواهر الطبيعة، تأخذ بعداً تشخيصيّاً، فمنذ عصر الصيّد تعامل الإنسان الأول مع هذه الظواهر من حيث أنها (أرواح) حيّة، ينبغي التقدم إليها بالهبات لاسترضائها، وكسب مودتها. وفي مرحلة الحضارات البشرية القديمة اللاحقة، بعد أن عُرفت الزراعة واستقرّ الإنسان في المدن، ظلّت المظاهر الكونية، بحركتها المرتبطة مباشرة بالحياة اليومية، مثل تعاقب الليل والنهار، الولادة والموت، العواصف الممطرة والبراكين الثائرة... الخ...، ظلت هذه المظاهر مرتبطةً في وعيه، بحضور شخصيّ لقوى، تقف وراء مايحدث من نشاط وتبدل في الطبيعة والحياة. وإذا كان الإنسان المعاصر يستخدم تعابير مثل: «مجموعة القوانين المسؤولة عن سقوط المطر» لتفسير مايحدث في الدورة الحياتية للطبيعة، فإن الإنسان القديم كان، ببساطة، يرى وراء هذه المظاهر، فعلاً مباشراً لـ (ربّة الخصب)، وإذا كنا نقول أن القمر يدور حول الأرض بفعل قوانين الجاذبية، فإن إنساننا القديم، كان يرى في ظهور القمر واختفائه، فعلاً مباشراً، لنشاط ربّةِ القمر، وهكذا... دواليك..

إننا نستطيع تحديد الدور الذي كانت الأرباب تلعبه في حياة الإنسان القديم، من حيث أنها: القوانين الكونية العظيمة (المخلوقة بالطبع)، التي يعني استمرارها في الفعالية، استمرار الحياة ذاتها...

لقد خلق الله ـ مهما اختلفت تسمياته ـ الكونَ، وضوابطه (الأرباب)، وهذه الضوابط محكمةٌ وعظيمةٌ، بحيث تستمر ماستمرت الحياة في دورة عمر الكون، ناظمةً للوجود في الطبيعة والمجتمع... إنها تقوم بالمهمّة التي

خلقت لأجلها، وتستمد فعاليتها من إله الكون الأوحد الذي أبدعها، وهذا المدد هو أشبه مايمكن، بالفيضْ الإشراقيّ الذي لايُدرك، لكنه لاينقطع، وإلا.. لتوقفتِ الحياة. وهكذا يبدو الحضور الإلهيّ غير مدرك بشكلٍ مباشر، إنه قائم في عمق الوجود دون أن يكون ظاهراً للعيان... إنه غير قابل للعرفان، إلّا من قبل المؤهلين للمعرفة... وهؤلاء المؤهلّون ليسوا سوى الشريحة الكهنوتية، التي حفظت عبر الأجيال «الأسرار العظمى»، التي لايمكن أن تعطى لأيّ كان!. إن الطابع الأسراريّ الذي ميز الديانات القديمة في الشرق العربي، كان، ومازال مصدر إشكاليةٍ هامة، كان:... بالنسبة للذهن الشعبي في المجتمعات القديمة، ومازال: بالنسبة للباحثين المعاصرين المتخصصين في هذا المجال. إنّ غياب الحضور المباشر، الملموس، للمبدأ الكوني على مستوى الطقس، وانحصاره في العمق الأسراري... اقتضى فيما بعد، في مراحل انحطاط الممالك القديمة، تفسخ التوحيد الربوبيّ، وظهور «الوثنية» في مجتمعات الشرق العربي القديم، مثلما اقتضى في الوقت ذاته، قراءةً سطحية سريعة، من طرف معظم المستشرقين، لتراثنا الديني، انتهت بتصنيفه بشكل خاطئ، إلى درجة التبذيل.

كيف تتجلّى هذه الأسراريّة في العمق؟ وكيف تمت قراءتها من قبل الباحثين؟

لنقرأ معاً نصاً مصرياً قديماً، ترنيمة مرفوعةً إلى ربّ النيل (حابي):

> «الجلال لك أيا حابي، لقد قدمت هذه البلاد، وجئت في سلام كي تهب مصر الحياة، ياأيها الخفيّ، أنت هادينا في الظلام، إن شئت أن تهدينا فيه، تسقي الحقول التي خلقها (رع) وتحيي جميع الحيوان»[6].

وبعد أن يسهب النص في الثناء على حابي لكرمه على الإنسان والحيوان والزرع، يقول متابعاً:

«لايُصوَّرُ، ولايُرى في صورٍ منحوتة عليها تيجان وحدة الشمال والجنوب، تزينها شعارات الثعابين (يواريوس)، لاقرابين تقرّب له، ولاأعمال تؤدّى إليه، لايطلع في مكانه الخفي، ومكان سكناه غير معروف، لانجده في الحرم المنقوشة، إذ لاسكن يمكن أن يحتويه، وأنت لاتستطيع أن تتصور هيئته في قلبك»[7].

فإذا عرفنا أن حابي قد صُوّر، ومُثّل في العديد من النقوش والمنحوتات، جاء فيها على شكل ربيّن، أحدهما على رأسه برديّة، والثاني زهرة لوتس، أمكننا أن نتساءل: عن أيّ إلهٍ إذن يجري الحديث في الترنيمة؟

كيف يكون حابي «واحداً» و«خفياً» و«خالق نفسه»، وفي الوقت نفسه يتواحد مع «رع» إله الشمس، وتنسب إليه صفاته في نصوص أخرى عديدة، ثم فوق ذلك كله، نجده ممثلاً في هيئة «رجل ضخم له ثديا امرأة»؟

هل هناك شكل من التشتت والقصور في تفكير المصري القديم؟.. هذا على الأقل رأي قسم هام من الباحثين الغربيين، ويمثل جون.ا.ويلسن وهـ. فرانكفورت[8] نموذجين شديدي الوضوح للطريقة التي قرأ بها هؤلاء نصوصنا الدينية القديمة: «إذن السماء كانت بالطبع تمثّل بآلهةٍ هي (نوت)، يصورونها منحنية فوق الأرض، والشمس والقمر والنجوم تزين جسمها، وفي وضع كهذا قد تحمل هي ثقلها، أو قد يتلقّى بعض هذا الثقل إله الهواء (شو) بيديه المرفوعتين،... ثم إنّ قبّة السماء قد تمثل ببطن بقرةٍ سماوية مرصع بالنجوم وفيه المجرّة، ولم يجد المصري القديم ضيراً في أن الصورة الواحدة إنما هي بديل للأخرى، وفي النص الواحد قد يذكر هذه الأفكار المتباينة عن السماء... فصورة السماء وحاملاتها تملؤه بالثقة عوضاً عن الشك»[9]!!

إن انعدام الوحدة، والاتساق المنطقي، في رأي ويلسن، هو سمة العقل المصري القديم، الذي يقبل تناقضاً نصّياً منطقياً، مقابل حصوله على

ضمانات لعدم سقوط السماء على الأرض وسحقها لها، وذلك بجعل عدد من يرفعون السماء... أكبر مايمكن!!

وبرأينا.. على الباحث قبل الشروع بقراءةِ أي نص من نصوص ديانات المشرق القديم، أن (يتعلّم) طريقة تفكير الذين قاموا بكتابته، وعليه ألّا يفاجأ أبداً، بأن لديه الكثير ليتعلمه قبل القراءة!!: إن الأسراريّة المميزّة لدياناتنا القديمة، هي مفتاح رئيسٌ، أضاعه المستشرقون، بقراءتهم ظاهر النص دون النفاذ إلى عمقه، وانهالت علينا فيما بعد، كتابات وأبحاث لاحصر لها، عن هذه الديانات، تقدم صورة، أقل مايقال فيها أنها مسخٌ، مجرّدةٌ من العمق الروحي الأسراري، وذلك باختصارها إلى طقوس مبتذلة، بل مضحكة، تقام إرضاءً لآلهةٍ لاعدّ لها، آلهةٌ تختلط حيناً وتتشابك أسماؤها وأجسادها، لتنفصل فيما بعدا، وتعود للاتحاد.. آلهةٌ خالقةٌ للكون حيناً.. ومخلوقة من قبل آلهة أخرى حيناً آخرا. خفيةٌ لايمكن تصورها أو تصويرها، وممثلةٌ في الرسوم والنقوش والتماثيل في الوقت ذاته... وهكذا في دوامةٍ لاتنتهي أبداً..

كيف يُقرأُ النص الديني الأسراري؟.. لنعد إلى الترنيمة السابقة، المرفوعة إلى حابي الذي «هيئته كهيئة خنيمو»[10] ولنقرأها من جديد مع النصوص التي سبقتها:

[إنّ الله الخالق، مبدأ الوجود، الذي أوجد الكون والأرباب لحظة نطقه بالكلمة، هو الواحد، الخفيّ، وهو الأزليّ الذي لايُدرك... يعطي الحياة لمخلوقاته، ويفيض بخيره على الكون والبشر والأرباب إنه يفيض قدرته ليجعل رع يضيء وحابي يسقي وإيزيس تخصب..

إنه «رع»... عندما يضيء الكون

إنه «حابي»... في جريانه العظيم

إنه «أوزوريس»... الذي يحاسبَ الموتى ويقضي بين الأخيار والأشرار

إنه في كل مكان... نعرفه من عطائه.. ونعرفه من خلقه.. وعندها نسبحه، ونمجده في مخلوقاته العظيمة التي نراها بفعلها... نمجده في رع.. وفي حابي... نرفع مديحنا إليه عندما يفيض النيل.. ولحظة شروق الشمس وعند كل حدث عظيم، يؤمّن حياتنا ورخاءنا ويبعد عنا الضرر..

إن الله هو هو... إنه في كل مكان.. وهو في الوقت ذاته لامكان يحتويه و«ليس لك أن تتصور هيئته في قلبك»].

كان على جون.ا.ويلسن أن يقرأ النص بهذه الطريقة ـ وهو معذور إن لم يفعل ـ عندها لن يجد تناقضاً داخلياً في المضمون، وهذه الطريقة في قراءة النص ليست اكتشافاً معاصراً!!، فرجل الدين الهندوسي الذي لم يعرف مضمار الأبحاث التاريخية ـ الأركيولوجية قط، كان سيقرأ نصنا بطريقة مشابهة لقراءتنا، وكذلك سيفعل الباطني المعاصر، والصوفي العارف، بغض النظر عن إقرارهما بمضمون النص أم لا!

إن المعرفة العميقة بالديانات القديمة، لم ـ تكن بحكم أسراريتها ـ متاحةً لعامة الناس في العصور القديمة، لقصور الذهن الشعبي عن تمثلها من جهة، ولحرص الكهنوت على إبقائها كأسرار مقدسة وخطيرة لاينبغي إعطاؤها لأي كان، فمعرفة سر الوجود وقفٌ على من يستحقها، بحيث يستطيع تمثلها دونِ تبذيل، والتسطيح والتبذيل واردٌ وحقيقيٌ آنذاك، مثلما هو وارد وحقيقي الآن، بعد مرور أربعة آلاف عام، وبعد الوصول إلى المريخ وزحل!

لقد كان التوحيد في مرحلةٍ من تاريخ المنطقة القديم سمةً مميزة للعبادة،

في إطار تعددٍ طقسي ربوبيّ، وقد استمرت هذه الصيغة فترة طويلةً من الزمن، مشكّلةً مرحلةً دينية هامة في سياق تطور الفكر الديني في المنطقة، قبل أن تبدأ بالتفسخ، معطية أشكالاً أخرى لاحقة.

الفصل الثاني

تفسّخ التوحيد الرّبوبي وظهور الوثنية

كان الحضور القويّ والمباشر، للأرباب المتنوعة تنوع قوانين ومظاهر الحركة الطبيعية والاجتماعية، يتجلّى في وجود ثلاثة آلاف منها في سومرالقديمة وحدها، وفيما استوجبت العلاقة المعقدة التي تربط هذا التنوع الرّبوبي بالخالق المنزّه، وجود شكلٍ من الأسراريّة المحظورة على العامة، بقيت الطقوس الدينية على المستوى الشعبي مقصورةً على الأرباب وحدها، والتي حازت دائماً وجوداً مرئياً وملموساً من الجميع، ليس على مستوى تمثيلها في النصب والرسوم فحسب، وإنما في الفعاليّة اليوميّة التي تتجلّى في مشاركتها المؤمنين نشاطاتهم الحياتية الضرورية، في مواسم البذار والحصاد، والزواج، والحرب... الخ.

وعليه فقد كان الطقس يؤمّن استمرار العلاقة المباشرة، بين المتعبد والأرباب، فقبل موسم البذار ترفع التضرعات وتقدم النذور إلى ربّة الخصب، وعند وفاة أحد الأقارب، يتوجه الأهل إلى معبد ربّة العالم السفلي لضمان انتقالٍ مريح وميسور لروح القريب.. وبشكل عام، فقد كانت هذه الطقوس، على المستوى الشعبي، هي كل مايعرفه المؤمن عن الدين والعبادة، أمّا خالق الكون والأرباب، فلم يكن هناك يتقرَّب إليه من أفراد الشعب

المؤمن!، لابنذوره، ولابصلواته، فهو الذي لايمكن أن يمثّله شكل، أو يحتويه مكان، لامعبد له، ولانصب يذكر به، إنه المتسامي، البعيد،... إلى درجةِ الغياب عن الذهن الشعبي... المؤمن!

إن غياب الصلة المباشرة بين المؤمن والخالق، أنشأ بالتدريج، شكلاً «فصامياً»، ميّز الديانات العربية القديمة، فإذا كان الكاهن العارف، يصلّي إلى الله الخالق عندما يرفع ترانيمه إلى أوزوريس أو حابي، فإنّ المؤمن البسيط، لم يكن بمقدوره أن يدرك ذلك، وبالتالي لم يكن ليفعله!

إن هذه النقطة بالتحديد بحاجة إلى توضيحٍ كافٍ، وسوف نتناولها بالبحث، من خلال تأملنا في أحد جوانب اللوحة العبادية للمسيحية في القرون الوسطى...:

في القرن الثامن للميلاد، حدثت هزّة عنيفة في الكنيسة الأورثوذكسية، إثر ماسمّي آنذاك «حرب الأيقونات»[11]، التي دامت خمسين عاماً، أُلغي خلالها بقرارٍ أمبراطوري، وبناءً على قرار المجمع المسكوني، كلّ حضور للأيقونات والصور التي تمثل السيد المسيح، والعذراء، والقديسين، من الكنائس والبيوت.. وقد اقتضى تنفيذ هذا القرار إراقة الكثير من الدماء في ذلك الحين.

لقد اضطر مؤيّدو الأيقونات للتأكيد العنيف بأنه:

> «نحن المسيحيون نسجد للأيقونات، للمرسوم لا للمادة، ونقدّم التكريم، لمن هم مرسومون عليها»[12].

لكن حرب الأيقونات لم تقم لهذا السبب، فخصوم الأيقونات كانوا على علم تام، بأنّ المؤمن بسجوده أمام الأيقونة، إنما هو يكرّم القديس الذي تصوره، لاطلاء اللوحةِ أو خشبها!!، والحرب إنما نشبت ضد هذا الشكل من التكريم بالتحديد، ضد تكريم القديس الذي تمثله الأيقونة، بالسجود أمامها.

إن تكريم القديسين والأولياء، لدى المسيحيّ المؤمن، الأميّ، في القرن

الثامن، برفعه الصلوات، وإيقاده الشموع أمام أيقوناتهم، وبتقديمه النذور إلى مزاراتهم، يقارب إلى حدٍّ بعيد الطقوس العباديّة القديمة التي كانت تقام في المنطقة العربية قبل ثلاثة آلاف عام، وهو يُعيد طرح النقطة الهامّة، التي تتمثل في قصور الذهن الشعبي، عن إدراك الموقع الفعليّ الذي يشغله القديس (الربّ) في اللوحة الإيمانيّة. فالحضور البسيط والمباشر الذي تقدمه الأيقونة والمزار، هو فعليٌّ، ملموس، ومطمئن. وبعيداً عن مصطلحات اللاهوت المعقدة التي يسمعها المؤمن في الكنيسة دون أن يدرك معناها في الغالب فإن الصورة الموضوعة فوق سرير المريض، تضمن له ولأهله، المساعدة الرفيقة للشفيع الذي يحتل إطارها، وهذا الشفيع قريب ومفهوم، وبسيط، بساطة العقل الذي يتقرب إليه بإشعال شمعة أو إيقاد الزيت المقدس، فيما يظلّ الخالق سبحانه وتعالى بعيداً.. متسامياً.. وغير مُدرك من قبل هذا العقل، وأسيراً للّاهوت المعقد، الذي لايحس المؤمن أمامه إلا بالعجز، وعدم القدرة على الفهم، وإن كان مُدرَكاً ومفهوماً من جانب الكهنوت الديني....

إننا نستطيع القول، أنه كانت في هذه المنطقة، وإلى وقت ليس ببعيد سوّيتان من الفكر الإيماني، سوية الكهنوت المخوّل، والقادر على إدراك كامل أبعاد اللوحة الدينية، وسويّة الذهن الشعبي، التي لاتستطيع أن ترى ماهو خفي، إنها ببساطة تدرك الجزء الذي تراه، وهو الطقس الذي يشكّل الجزء المرئي والملموس في دياناتها.

من هذه النقطة بالذات، تأخذ الوثنية بالظهور، إنها شكل العبادة الذي يتماهى فيه الرمز (الربّ ـ الشفيع)، المخلوق أصلاً، مع الخالق الأوحد المنزه، ويحتل مكانه بالتدريج، إلى درجةِ إلغائه بصورةٍ شبه كاملة، من اللوحةِ الدينيةِ الشعبية.

وشيئاً فشيئاً، تدخل الأربابُ الحرم الإلهي، ويبهت نور المبدأ الكوني، وتتلاشى عظمته، لتقترب من سويةِ الأرباب، فيقرأ علينا كاتب معاصر مثل

وديع بشور مدهوشاً بعض الشيء رأيَهُ في مكانةِ إيل، خالقَ الخلق وأبو السنين، بأنه: «ورغم مكانته العالية، فإنه لايلعب دوراً فعالاً، بل يتنحّى عن الأحداث بمحض إرادته وكأنّه قد فقد سلطته، يحب الهدوء، ولايهتم كثيراً بمشاكل خلائقه»[13] وعلى ذلك يظهر مَنْ خلق الأرباب والبشر في الميثولوجيا الكنعانية وكأنه قد أحال نفسه إلى.. التقاعد!

إن سيرورة التحول تلك، كانت تتم دائماً بتواطؤٍ وتشجيع من الشريحة الكهنوتية ذاتها، فالمهم أساساً بالنسبة إلى قسم من الكهنوت الديني، هو الأموال والهبات المقدمة كنذور إلى معبد هذا الربّ (القّديس)، أو ذاك، ومن هنا لم يكن هناك أي حرج في ممارسةِ شتى طرق الشعوذة لتحقيق دعاية «إعلاميّة» للمزار أو المعبد، وابتكار ذخائر مقدسة مزعومة، برسم البيع، مثل شعرات ذقون ورؤوس القديسين، أو برسم الاستثمار مثل «الأثر الحقيقي الوحيد الباقي من ختان المسيح»(*)!! والذي كانت خمس كنائس فرنسية تزعم أنه موجود في كلٍّ منها في القرن العاشر للميلاد.

إن الابتذال الطقسي، الذي كان يتم على يديّ الكهنوت، حامي العقيدة، وحافظ أسرارها، كان يمتد ليبلغ العمق الديني، عندما يقوم الكهنة بنسب كرامات وقدرات إلهيّة، لصاحب هذا المعبد أو ذاك، تميّزهُ عن باقي الأرباب (القديسين)، وتجعله أرفع منها شأناً، وأكثر فعالية على مستوى استدرار المال. وبهذا الشكل، كان الكهنوت بوعي منه أم بدون وعي، يقوم بصياغة، وبناء، الذهن الوثني في قلب العقائد التوحيدية الربوبيّة، التي كان عليها في عصور الإنحطاط، أن تتفسخ على يدي كهنوتها بالذات.

(*) تسابقت الكنائس والأديرة في القرون الوسطى على الإدعاء بحيازتها لذخائر مقدسة **موهومة** فقد كانت كنيسة سانت أومر مثلاً تحتوي على «قطع من الصليب الحقيقي، وقطع من الحربة التي طُعنَ بها السيد المسيح، بالإضافة إلى قطع أخرى ثمينة من قبره، ومهده!!، إلى جانب عينات من المنّ الذي أنزله الله على بني إسرائيل، وقطع من عصا هارون» (قصة الحضارة - ج16 - ص (24)).

الفصل الثالث

حنفاء قدامى ـ العبادة الأيليّة

مع تفسخ التوحيد الربوبي في المنطقة العربية القديمة، ظهرت تيارات دينية تدعو إلى توحيدٍ صارم، يشمل العمق والسطح، العقيدة والطقس. أبرز هذه التيارات على الإطلاق الديانة الأيليّة القديمة، التي انتشرت في كامل المنطقة العربية، ووصلت إلى عمق شبه الجزيرة فيما بعد.

في أوغاريت، ومنذ الألف الرابع قبل الميلاد، قام أتباع إيل(*) وبشكل حاسم، بإلغاء كل حضور للأرباب من الطقوس الدينية للبلاد، فبَعلْ أقوى الأرباب الأوغارتيين، صار الآن شيطاناً أكبر، وزعيماً للأبالسة، وكذلك عشتار التي أصبحت علّة للإنحلال الخلقي ومصدراً للإباحية الجنسية. لقد أُنزل الرّبّان مرّة واحدة، من أهم موقع في العبادة الطقسية الأوغاريتية إلى أسفل درجات الجحيم، حيث «يتراءى الإثنان في موكب تحف به الأبالسة والشياطين من كل صنف ولون»[14].

لقد رأى كهنة إيل، وفي وقت مبكر، أن الشعائر الدينية ينبغي أن تقام

(*) إيل: من أسماء الله عز وجل، سرياني أو عبراني، يقول ابن الكلبي: وقولهم مخائيل وجبرائيل وأشباهها إنما تُنسب إلى الربوبية، لأن أيلاً لغة في أيل، وهو الله عز وجل، كقولهم عبد الله ويتم الله. لسان العرب (40)

للخالق وحده، وبشكل مباشر دون أية وساطةٍ من مخلوقاته مهما عظمت (الأرباب) وأن السبيل الوحيد لتوطيد هذا الشكل التوحيدي في أوغاريت، إنما يمر لامحالة عبر نسف الطقوس الربوبية في الأساس، وإلى الأبد، بتدمير معابد الأرباب، وإنهاء وجودها في الذهن الشعبي الكنعاني.

لقد هدمت معابد مكرّسة لبعل، وعشتار، وأُذيبت تماثيلهما، وألغيت عبادتهما فترة غير قصيرة في سورية القديمة، وعندما حاول أحد ملوك أوغاريت الارتداد عن التوحيد الإيلي وإعادة العبادات القديمة، قتله أتباع إيل دون تردد[15].

ورغم أن الصراع لم ينته بين البعل وعشتار من جهة وبين أتباع إيل من جهة ثانية، ورغم عودة العبادات القديمة إلى أوغاريت في فترات لاحقة، إلا أننا نستطيع أن نلمح بوضُوح أسبقيّة حضور الفكر الديني التوحيدي المطلق في سوريا القديمة، ونتابع انتشاره في المنطقة العربية بأكملها، عبر الديانة التي أطلق عليها فيما بعد «الإبراهيمية». لقد كان الإيليّون بحق، أجداد الحنيفية اللاحقة، في صراعهم ضد الأرباب، وإلغائهم لحضورها الطقسي، ودعوتهم إلى التوجه لله وحده في العبادة، وهذا الصراع سوف يتكرر مراراً بين المعسكرين وصولاً إلى مطلع القرن السابع الميلادي قبيل نزول القرآن الكريم.

الفصل الرابع

إبراهيم الخليل حنيفاً

في جميع المصادر التاريخية التي أتت على ذكر حنفاء الجاهلية، ورد ذكر هؤلاء من حيث أنهم على دين إبراهيم، كما أن الحنفاء أنفسهم أكدّوا هذه النقطة من خلال أدبهم الشعري والخطابي[16]، فمن هو إبراهيم الخليل؟.

في كتابه «العرب واليهود في التاريخ»، يحدثنا د. سوسة: «لقد ظهر من المدونات التاريخية القديمة التي اكتشفها الآثاريون، أن هجرة إبراهيم هي حقيقةٌ واقعة لامجال للشك فيها، فقد ورد في هذه المدونات مايشير إلى وقوع نزاعات دينية أساسية في العراق، في حوالي الفترة التي هاجر فيها إبراهيم الخليل»[17]. وأسباب هذه الهجرة، هي صراع داخلي عنيف، تبدّئ على السطح على شكل صراع بين عبادة «إيل» التوحيدية وبين عبادة (سين) إله القمر الجنوبي، انتهى بانتصار أتباع سين، وأدى إلى خروج هجرة كبيرة من العراق بقيادة آخر ملوك السلالة السابقة، التي كانت على العبادة الأيليّة، واسم هذا الملك هو (يائع إيل) ومعناه «إلهه الواحد صديق له»، وهي الصفة ذاتها التي عُرف بها إبراهيم: «خليل الله».

ويرى د. سوسة أن إبراهيم ليس سوى «يائع إيل»[18] ذاته، الذي خرج بقومه في هجرةٍ طويلة، انطلقت إلى مدينة ماري أولاً، ثم حرّان، وبعد ذلك تدمر فدمشق، لتستقر في أرض كنعان[19].

وعلى ذلك فالإبراهيمية أو ديانة إبراهيم ليست سوى الفرع الآرامي للعبادة الإيليّة التوحيدية، التي كانت منتشرة على نطاق واسع في المنطقة العربية القديمة[20] والتي تحولت فيما بعد إلى عبادة «الله» عز وجل بعد التحول الذي طرأ على لفظ (إيل) إلى لفظ الجلالة (الله)[*]، وقد بقيت أصداء بعيدة للإبراهيمية في شبه الجزيرة العربية، حتى القرن السابع الميلادي، نستطيع تلمسها في الأشكال العبادية التي كانت قائمة قبيل الإسلام. ونحن إذ نقول ذلك لانعني بطبيعة الحال أن العبادة الأيليّة بفرعها الإبراهيمي كانت قائمة في الجاهلية المتأخرة بشكلها القديم الصافي، وطقوسها، بل نعني أننا نستطيع تلمس حضورها البعيد في نقطتين رئيسيتين:

الأولى ـ الاتفاق بين عرب الجاهلية على اعتبار إبراهيم الخليل نبياً عظيماً.

الثانية ـ أن الله سبحانه هو خالق جميع الأشياء والحيوات

وهما نقطتان تشكلان عنواناً عريضاً اتفق عليه المشركون الذي يتعبدون لله بالتقرب إلى مخلوقاته (الأرباب)، والحنفاء الذي اعتزلوا الأصنام وأكدوا أن العبادة ينبغي أن تقام لله وحده دون شفيع أو وسيط.

وسوف نرى فيما بعد أن الحنفاء هم إبراهيميون بهذا المعنى الفضفاض، وأنهم على مستوى العقيدة والطقس، إنما صاغوا آراءَهم، من خلال تفاعلهم الذهني مع المحيط الشديد التنوع للمذاهب التوحيدية في شبه الجزيرة العربية وعلى تخومها، قبل الإسلام.

(*) لاحظ جورجي كنعان في كتابة (تاريخ الله) أن النقوش التي عثر عليها في الإمارات الآرامية تتضمن إشارات واضحة إلى التطور الذي لحق باللفظ (إيل) منذ الألف الأول ق.م من حيث البنية والمدلول، فمن حيث البنية ترددت في النقوش صيغ متعددة لـ «إيل» مثل (ال ه)، (ال ها)، (ال هه)، (ال هم)، (ال ه ىا). ومن حيث المدلول تحولت الصفة (إيل) عند العرب القدماء إلى لفظة «الله» فكان من الطبيعي أن يدخلوه في تركيب أسمائهم مثل: ماء الله ـ سعد الله ـ الخ.

هوامش الباب الأول

1 ـ الديانة الفرعونية ـ واليس بدج ص (31)
2 ـ المصدر نفسه ص (31)
3 ـ المصدر نفسه ص (30)
4 ـ المصدر نفسه ص (31)
5 ـ المصدر نفسه ص (32)
6 ـ المصدر نفسه ص (29)
7 ـ المصدر نفسه ص (29)
8 ـ ماقبل الفلسفة ـ هـ. ا فرانكفورت وج. ا. ويلسون وآخرون ص (61).
9 ـ المصدر نفسه (61)
10 ـ الديانة الفرعونية ـ واليس بدج ص (29)
11 ـ تاريخ كنيسة انطاكية ـ خريستوستمس باب دوبولس ص (569): انعقد المجمع سنة (754)م بدعوة من الإمبراطور قسطنطين الخامس، واشترك فيه (338) رئيس كهنة وقرّر المجمع أنه «تعتبر كل أيقونة مصنوعة من أية مادة من عمل الشيطان، وغريبة عن كنيسة المسيحيين».
12 ـ المصدر نفسه ص (559)
13 ـ الميثولوجيا السورية ـ وديع بشور ص (120)
14 ـ لغز عشتار ـ فراس السواح ص (349)
15 ـ المصدر نفسه ص (348): تم ذكر هذا الملك في نصوص «اللألئ» تحت اسم الملك الكبير وتقع الأحداث المذكورة في أواسط القرن الألف الرابع عشر قبل الميلاد.
16 ـ في رواية عن أمية بن أبي الصلت، أنه قدم المدينة فقال للنبي: ماهذا الذي جئت به فقال الرسول: الحنيفية دين إبراهيم، قال: فأنا عليها (د. جواد علي ـ «المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام» ج، ص (486)) وذكر جواد علي أن زيد بن عمرو بن نفيل كان يردد أثناء صلاته: (إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم). أما صرمة فقد ترهب ولبس المسوح وهجر الأوثان ودخل بيتاً واتخذه مسجداً لاتدخله وقال: أعبد رب إبراهيم (504).

17 ـ العرب واليهود في التاريخ ـ أحمد سوسة ص (446)

18 ـ المصدر نفسه: عن أحوال العراق وقت هجرة إبراهيم وهي الفترة الممتدة بين (2006 ـ 1800 ق.م) حيث دار صراع طاحن بين ممالك أبسن العمورية ولاريسا العيلامية، وبابل العمورية وقد حدث هذا الدور فيضان استثنائي خطير جداً في دجلة والفرات.

19 ـ المصدر نفسه ص (194).

20 ـ يدل على انتشار عبادة إيل كثرة الأسماء التي يدخل (إيل) في تركيبها في المنطقة العربية القديمة وقد ذكر جورجي كنعان في مؤلفه (تاريخ الله) لائحة بعشرات الأسماء المركبة التي ضمتها النقوش في كل موقع من المواقع الأثرية مخصصاً لذلك أكثر من عشرين صفحة نذكر منها إيلو نصر. م (لاريسّا)، ربي إيلوم (آكاد)، خنى ـ إيل (آرام) ايني إيل (آشور)، أنا إيل (ايبلا)، عبد إيل (جبيل وصيدون ومصر)، رام إيل (دمشق) وهب إيل (الأنباط)، خِلّ إيل (ثمود) خِلّ إيل (حوض الأردن)، عز إيل (الحيان) سعد إيل (تيماء).

الباب الثاني

حنفاء الجاهلية

الفصل الخامس

حنفاء القرن السادس للميلاد(*)

الحنيف عند أهل الجاهلية، من اختتن، وحج البيت، فكلٌّ من اختتن وحج البيت هو حنيف، ويرى الطبري أن ذلك لايكفي، بل لابد من الاستقامة على ملّة إبراهيم واتّباعه عليها، وقد أضاف بعضهم اعتزال الأصنام، والاغتسال من الجنابة إلى ماسبق وجعلوا ذلك من أهم العلامات الفارقة التي تميز الحنفاء عن المشركين.

كما أن أهل الأخبار أضافوا إلى ماسبق الامتناع عن أكل الذبائح التي تقرّب إلى الأوثان والأصنام، لأنها ذبحت لغير الله، كما نسبوا إليهم تحريم الخمر على أنفسهم والنظر والتأمل في خلق الله.

ولفظة حنيف بحسب قسم من المستشرقين ذات أصل عربي، بمعنى التحنث، أي الانقطاع للتعبد والتّأملِ، وقد وردت لفظة حَنَفَ (حنفه) في النصوص العربية الجنوبية بمعنى صَبَأَ، أي مال وتأثر بشيء ما، وهي في السياق الاجتماعي ـ الديني، تشير إلى من ترك عبادة قومه إلى عبادةٍ أخرى،

(*) تم إعداد هذا الفصل والفصل الذي يليه عن كتاب د. جواد علي «المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام»، المجلد السادس.

وبحسب المسعودي: الصابئ لفظةٌ من أصول سريانية، أطلقت على المنشقين عن عبادةِ قومهم، وقد أطلق أهل مكّة عل النبي صلى الله عليه وسلم، وأتباعه لفظة صابئ، وصباة، فصارت علماً على من تنكّر لعبادةِ قومه الجاهلية.

وباختصار فالحنفاء عند الإخباريين، مجموعة من الزهاد، الذين نبذوا عبادة الأصنام، وكل مايتعلق بها من طقوس، وتمسكوا بالديانة الإبراهيمية الحقّة، تاركين عبادة قومهم إلى عبادة الله وحده وذلك عبر ممارسة طقوس عباديّة أُشيرَ إليها بشكل خاطف من قبل الرواة، مثل الحج، والصوم، والتحنّث، والختان، وتحريم الخمر... الخ.

وجلّ هؤلاء الحنفاء من أسرٍ معروفة، وبيوت يظهر أنها كانت مرفهة أو فوق مستوى الوسط بالنسبةِ إلى تلك الأيام، ولهذا صار في إمكانهم الحصول على ثقافة، وعلى شراء الكتب كما صار في إمكانهم الطواف في خارج الجزيرة لامتصاص المعرفة.

ويلاحظ أن جميع من حشرهم أهل الأخبار في الحنيفيّة كانوا من القارئين الكاتبين، وكانوا يشترون الكتب ويراجعونها، ويتسقطون أخبار أهل الآراء والمذاهب والديانات، ولبعضٍ منهم علم باللغات السريانية والعبرانية، فهم بالنسبة لذلك الوقت الطبقة المثقفة التي نادت بالإصلاح، ونبذ الأساطير والخرافات، وتحرير العقل في سيطرة العادات والتقاليد، وذلك بالدراسات والتأمّل وقراءة الكتب والرجوع إلى دين الفطرة الذي لايقرّ عبادة الشرك ولاعبادة الناس.

الفصل السادس

أعلام الحنفاء كما حدثنا عنهم الرّواة

إن الأسماء التي وصلتنا عن حنفاء الجاهلية، هي حصراً أسماء الذين عاشوا قبل الدعوة الإسلامية بزمن وجيز، والذين عاصر قسم منهم الإسلام، وماوصلنا ينبئ أن هؤلاء قد انتشروا في مختلف أرجاء شبه الجزيرة، وعبر قبائلها المختلفة في الشمال والجنوب، وهذا مانلمسه من أسماء هؤلاء وانتماءاتهم القبليّة، وهم بِحَسْبِ الإخباريين:

(*)«قسّ بن ساعدة الإيادي - زيد بن عمرو بن نفيل القرشي - أمية ابن أبي الصلت الثقفيّ - أرباب بن رئاب - سويد بن عامر المصطلقيّ - أسعد أبو كرب الحميري - وكيع بن زهير الإياديّ - عمر بن جندب الجهني - عدي بن زيد العباديّ - أبو قيس صرمة - سيف بن ذي يزن الحميري - ورقة بن نوفل القرشي - عامر بن الظرب العدواني - عبد الطابخة بن ثعلب بن وبرة بن قضاعة - علاف بن شهاب التميميّ - المتلمس بن أميّة الكناني - زهير بن أبي سلمى - خالد بن سنان العبسي - عبد الله القضاعي - عبيد الله بن الأبرص الأسدي - كعب بن لؤي بن غالب».

(*) الملاحق: خريطة رقم (١) وخريطة رقم (٢)، الانتشار الجغرافي للحنفاء استناداً إلى انتماءاتهم القبلية.

ـ **أمّا قسّ بن ساعدة** فقد رفعه الإخباريون إلى سويّةٍ عالية، في الحكمة والخطابة، ويُروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم، أدركه، ورآه يخطب في سوق عكاظ خطبته الشهيرة التي مطلعها: «أيها الناس، اجتمعوا واستمعوا، وعوا...»، غير أنه لم يحفظها رغم إعجابه بمضمونها، وأن أبا بكر، وكان من جملة من حضر السوق وسمع الخطبة، كان قد حفظها، فأعادها على الرسول، وهي مزيج من الحكمة والوعظ الأخلاقي ـ الديني اللطيف، فحفظها..

وقد نقل لنا الأخباريون نتفاً من آراء الرجل في الحكمة فقد «قيل لقس بن ساعدة.. ما أفضل المعرفة؟.. قال معرفة الرجل لنفسه، قيل له: فما أفضل العلم؟ قال: وقوف المرء عند علمه، قيل له: فما أفضل المروءة؟ قال: استبقاء الرجل ماء وجهه».

وقد ذكر بعض الرواة أن لقس وقومه فضيلة ليست لأحد من العرب، لأن الرسول روى كلامه وموقفه على جمله الأحمر في سوق عكاظ، وموعظته، وعَجِبَ من حسن كلامه وتصويبه، كما ذكر هؤلاء، أنه صلى الله عليه وسلم قد قال فيه «يَحشُرُ أمةً وحده يوم القيامة»، مما يدل أن الرجل كان بعيداً كل البعد عن عبادةِ قومه الجاهلية وأنه كان على عبادة الله وحده.

وإذا كان أهل الأخبار قد اتفقوا على الصفات المنسوبة إلى قس، فإنهم قد اختلفوا في تأويل المذهب الديني الذي كان عليه، فمنهم من عدّه نصرانياً واسقفاً لنجران، ومنهم من أدرجه في جملة حنفاء الجاهلية على ديانة إبراهيم، وآخرون زعموا أنه «على الركوسيّة وهي فرقةٌ بين النصارى والصابئين، شملت جماعة من الحائرين في أمرهم وذلك عمدوا إلى السياحة والترهب والانزواء، وقد حسبهم العرب نصارى فأدخلوهم فيهم في أثناء كلامهم عن هؤلاء».

ـــ **أمّا زيد بن عمرو بن نفيل فهو** من قريش من بني عدي «لم تعجبه عبادة قومه، فاعتزل الأصنام، ونهى عن المؤودة، وامتنع عن الذبح للأنصاب وعن أكل الميتة والدم والذبح للأصنام، فكان في آرائه هذه مثل نفر آخر من قريش منهم ورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث، وعبيد الله بن جحش، لاموا قومهم على عبادة الأصنام، وهم طائفةٌ من المفكرين، رأى بعضهم بلاد الشام، واتصل ببعض المبشرين والنصارى، ووقف على التطورات الفكرية في الخارج، ولعله ـ زيد بن عمرو ـ كان يقرأ ويكتب وله اطلاع على مؤلفاتٍ في الفلسفة والدين...».

وتفيضُ الروايات الإخبارية في ذكر رحلات زيد إلى الشام والعراق ومدارسته أحبارها ورهبانها في إطار بحثه عن ديانة إبراهيم الخليل، كما تُجمِعُ على أنه لم يتهوّد أو يتنصّر، وتضعه في مصاف النخبة، على السويتين العقلية والأخلاقية، فقد روي أنه كان يُحيي المروءة، فيقول للرجل الذي أراد أن يئدَ ابنته «مهلاً، لاتقتلها، أنا أكفيك مؤونتها، فيأخذها، فإذا ترعرعت، قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤونتها»..

أمّا عن العبادة التي كان عليها، فقد روت أسماء بنت أبي بكر «قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل، مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول: يامعشر قريش، والذي نفسي بيده، ماأصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري ثم يقول: اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك لعبدتك به، ولكني لاأعلم، ثم يسجد على راحته، ويصلى إلى الكعبة ويقول: إلهي إله إبراهيم.. وديني دين إبراهيم» ويروي أهل الأخبار أنه كان إذا خلص إلى البيت استقبله ثم قال: «لبيك».

ثم يقول:

عذت بما عاذ إبراهيم به
مستقبل الكعبة وهو قائم

وأخيراً فقد رُوي عن زيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ترحم عليه، وأنه قال: «رأيته في الجنة يسحب ذيولاً».

ـ **أما أمية ابن أبي الصلت** فهو أوفر الحنفاء حظاً في بقاء الذكر، حيث وصلنا الكثير من شعره الديني، الذي يتناول فيه مختلف قضايا الخلق والحياة والبعث... الخ.. ويمكن أنْ يُعَدّ بحق مُنظّر الحنيفيّة الديني الأول. وبحسب الرواة، قام أمية برحلات عديدة إلى الشام واليمن والعراق والبحرين، وأخذ الكثير من علومه الدينية عن دياناتها التوحيدية، من يهودية وصابئية ونصرانية، وكان يراوده طموح في التبشير برسالةٍ دينية توحيدية يكون هو نبيّها، فلما نزل الوحيّ على الرسول صلى الله عليه وسلم، حسده، واتخذ موقفاً بشكل سلبي، من الدعوةِ الإسلامية.

وأمية من ثقيف، سيدة الطائف، من بيوتها الأرستقراطية، كان يقرأ ويكتب، ويطالع كتب الحكمة والكتب الدينية، وقد ظهر ذلك جلياً في شعره حيث تطالعنا مفردات آرامية وهي اللغة التي كانت الكتب تدون بها في ذلك الوقت، ويذكر أهل الأخبار أنه كان قد حرّم على نفسه تعاطي الخمرة، وأنه كان أول من افتتح المراسلات والمعاهدات في الجاهلية بعبارة «باسمك اللهم» وأنه لم يرتضي في الأديان غير دين الحنيفية.

ومن اللافت للنظر انه وبرغم موقفه العدائي من الدعوة الإسلامية، والذي دفعه إلى رثاء قتلى بدر من المشركين فيما بعد، فقد نال شعره إعجاب النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقد روى ابن عباس أن الرسول لما سمع شعر أمية:

زحلٌ وثورٌ تحت رِجلِ يمينه
والنسرُ للأخرى وليثٌ مرصدُ

قال: صدق أميّة. كما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال فيه: كاد ليسلم في شعره، وفي روايةٍ أخرى: آمن شعره وكفر قلبه.

ـ **أما ورقة بن نوفل** فهو ابن عم خديجة الكبرى، زوج الرسول، عرف عنه أخلاقه الحميدة التي ميزت الحنفاء، وخروجه عن عبادة قومه القرشيين، وقد رُوي أنه كان عارفاً بالقراءة والكتابة، وأنه طاف في الأرض على شاكلةِ أمثاله من الحنفاء بحثاً عن الدين الصحيح، برفقة زيد بن عمرو بن نفيل، الذي كان صديقاً حميمياً له، رافقه في أسفاره إلى الموصل والشام، ورثاه ورقة عند موته بشعر رقيق.

وورقة من الحنفاء الذين اتخذوا موقفاً إيجابياً من الدعوةِ الإسلامية، وهو لم يدعُ لنبوةٍ قط، ولم يفكر بادعائها مثلما هو حال أمية، ويقال أنه كان يمر بمكة، فيرى بلال الحبشي وهو يعذب، فيرثي لحاله ويقول: أحد «أحد والله يابلال، والله لئن قتلتموه فأنتم من الخاسرين».

ويظهر من هذه الرواية ومن بعض الأخبار الأخرى أنه قد أدرك الدعوة الإسلامية لبعض الوقت، فيما تؤكده روايات أخرى موته قبل البعثة، وقد روى أن الرسول عليه الصلاة والسلام، قد قال بعد وفاة ورقة:

«لاتسبّوا ورقة بن نوفل، فإني رأيته في ثياب بيض»، إشارة إلى أنه من أهل الجنة.

ـ **أما وكيع بن سلمة الإيادي:** فعرف عنه أنه بنى صرحاً وهو بناء مرتفع كالبرج، في أسفل مكة، وجعل في الصرح سلماً، فكان يرقاه ويزعم أنه يناجي الله، وعرف باسم صاحب الصرح، وكان ينطق بالكثير من الخبَرْ فاعتبره الناس صدِّيقاً من الصديقين، وذكروا له كلمات مسجوعة على شاكلة:

«مرضعةٌ وفاطمة، وصلة الرحم وحسن الكلم، زعم ربكم ليخبرني بالخير ثواباً وبالشر عقاباً، وإن من في الأرض عبيد لمن في السماء».

ـ **أما عامر بن الضراب العدواني** فكان من الحكماء، واشتهر كواحد من أهم القضاة في الجاهلية، كان الناس يحتكمون إليه، فإذا حكم كان

حكمه الفصل فلا رادّ له.

ـــ **وأما المتلمس بن أمية الكناني** فذكروا أنه كان قد اتخذ من فناء الكعبة موضعاً يخطب فيه، ويعظ قومه، وأن من جملة ماقاله لهم: «إنكم قد تفرّدتم بآلهةٍ شتى، وإني لأعلم ما الله راضٍ بها، وإن الله تعالى رب هذه الآلهة وأنه ليحبّ أن يعبد وحده».

لقد نسبت إلى الحنفاء صفاتٌ مشتركة، أجمع عليها أهل الأخبار، منها أن هؤلاء لم يسجدوا لصنم، ولم يأكلوا من المذبوح للأنصاب، ولم يعاقروا الخمرة، بالإضافة إلى طقوس التعبد التأملي التي يمارسونها، بالاعتكاف في البراري والخلوات، في الكهوف والمغاور، حيث ينقطعون للتحنث والتعبد، كما أنهم كانوا على العموم من أصحاب الفضائل والشور السديد، ومما يؤكد هذه الصفات، الحظوة التي نالها بعض هؤلاء في نظر الإسلام ونبيه الكريم، الذي اعتبرهم على الملّة الإبراهيمية الحنيفة السمحة، وعَدّ مصيرهم الجنة، رغم أنهم لم يسلموا.

الفصل السابع

حنفاء لم يحدثنا عنهم الرّواة

حنفاء الردّة

عشية ظهور الإسلام، وبعد نزول الوحي، ظهر كثيرون من أدعياء النبوّة في شبه الجزيرة العربية، وقد راودت هؤلاء أحلامٌ في تحقيق طموحاتهم الشخصيّة، بالسيطرة على قبائل الجزيرة، عِبَر إدّعاء النبوّة، وجمع تلك القبائل على المستوى الديني تحت رايةِ التوحيد، ومن ثم إخضاعها ـ أو أجزاء منها ـ لسلطتهم الشخصيّة. إنّ حروب الردّة التي دارت، والدماء التي أهرقت، كانت ثمناً لطموح هؤلاء السياسي، عندما اعتقدوا أن اللحظة قد أزفت، للتحرك باتجاه التوحيد السياسي لقبائل شبه الجزيرة، تحت زعاماتهم، خاصةً وأن الدولة الإسلامية الفتيّة لم تكن قد ثبتت بقوةٍ بعد إلاّ في مثلث المدينة ـ مكة ـ الطائف. وقد قام هؤلاء بصياغةِ سجع ديني زعموا أنه كتاب أوحي إليهم، وادّعى كلٌّ منهم أنه رسول الله، وتمكن بعضهم من تثبيت أقدامه بقوة، في منطقته القبلية، مستفيدين من الولاء القبلي، لقبائلهم وأحلافها.

وإن يكن ذكر هؤلاء لم يرد عند الإخباريين الإسلاميين، بحسبانهم من الحنفاء، فإننا نميل بشدّة لاعتبارهم كذلك، لأنّ معارضة الإسلام المنتصر لم تكن ممكنة آنذاك، إلا من قبل زعماء يحوزون، بالإضافةِ إلى قدراتهم

الشخصيّة، ثقافةً دينيةً توحيديّة تمتد جذورها إلى ماقبل الدعوةِ الإسلاميّة، مكنّتهم من بهر محيطهم القبلي، وقيادةِ أتباعهم في معارك دامية مع جيوش المسلمين، معارك كان يصلُ فيها تعلّق بعض هؤلاء الأتباع، بأنبيائهم المزعومين، إلى درجة القتال حتى الموت.

إنّ الفارق النوعي بين حروب الردّة التي نشبت بعد وفاة الرسول، صلى الله عليه وسلم، ترشدنا إلى الملامح الرئيسة التي ميزت هؤلاء، ففي حين نشبت الحرب نتيجة امتناع قادةٍ قبليين عاديين عن أداء الزكاة في بعض المناطق التي لاتزالُ قبائلها على الإسلام، جاءت ردّة القبائل والأحلاف التي يتزعمها أمثال الأسود العنسي، وطليحة بن خويلد، ومسيلمة الكذاب، على أرضيّةٍ أخرى تماماً، إنها ردّة تقوم على طموحات تتراوح بين اقتسام النفوذ السياسي والمالي في شبه الجزيرة العربية مع قريش المسلمة، وبين السيطرةِ على كامل الجزيرة، بارتداد عسكري، يقوده نبيٌّ مزعوم يهدف إلى الإنقضاض على مركز الإسلام في مكة، المركز الديني والتجاري والسياسي لشبه الجزيرة، ومفتاح زعامتها.

إن أهم هؤلاء المتنبئين هم:

الأسود العنسيّ عبهلةُ بن كعب:

قال سيف بن عمر التميمي:

«أولُ ردّةٍ كانت في الإسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، على يد عبهلة بن كعب، وهو الأسود في عامّةِ مذحج خرج بعد حجةِ الوداع، وكان شِعباذاً(*) يريهم الأعاجيب، ويسبي قلوب من يستمع منطقه، فوثب هو ومذحج بنجران إلى أن صار إلى صنعاء فأخذها، ولحق

(*) شِعباذ: بكسر الشين، مشْعبذ، والشعبذة والشعوذة: أخذٌ كالسحر، يُري الشيء بغيرِ أصله في رأي العين.

بفروةِ من تم على إسلامه، لم يكاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه لم يكن معه أحد يشاغبه، وصفا له ملك اليمن»[1]..

و«غلب الأسود على مابين أعمال الطائف إلى البحرين وغير ذلك، وجعل أمره يستطير استطارة الحريق، واستغلظ أمره وغلب على أكثر اليمن، وارتدّ معه خلق، وعامله المسلمون بالتقية»[12].

ويتضح من الأخبار التي وردت عن عبهلة أنه كان يمتلك شخصية قوية، ومقدرات تيليباثيّة(*)، مكنته من إدهاش أتباعه، وفرض سيطرته على كامل اليمن إلى درجةِ أن المسلمين هناك، كانوا يكتمون أمرهم اتقاءً لشرّه، إلى أن تمكنوا من قتله على يد فيروز الديلمي، وقيس بن مكشوح الذي أوفده أبو بكر لهذه المهمة.

طليحة بن خويلد الأسدي:

استطاع طليحة بن خويلد أن يجمع حوله قبائل شديدةِ البأس مثل أسد غطفان وطيء بالإضافة إلى عبس وذبيان، وكان مثله كمثل عبهلة ومسيلمة، قد صاغ سجعاً دينيّاً زعم أنه أُوحي إليه، وكان قد ثبت أقدامه وقويت شوكته في محيطه القبلي، وليس أدّل على ذلك من حجم الجيش الإسلامي الذي سيره أبو بكر لقتاله، وعلى رأسه خالد بن الوليد أهم القادة العسكريين الإسلاميين في ذلك العصر، وعن الزهّري قال:

«سار خالد بن الوليد من ذي القصّة في ألفين(**) وسبعمائةٍ إلى ثلاث

(*) القدرات التيليباثيّة: أو القدرات فوق الحسيّة مثل التخاطر عن بعد والاستبصار، وممارسة أشكال من التنويم المغناطيسي، وهي قدرات صنّفها علم النفس الحديث تحت عنوان عريض وهو: الباراسيكولوجي، وتوجد هذه الطاقات بسوياتٍ متفاوتة لدى البشر، وقد تصل عند بعضهم إلى درجةِ الإبهار، بحيث اعتُبر هؤلاء قديماً من أصحاب الخوارق.

(**) وهذا الرقم الذي يتراوح بين 2700 ـ 3000 فارس، هو جيش جرار، بمقاييس الأرقام التي تقيس المعارك القبلية في ذلك العصر.

آلاف، يريد طليحة، ووجّه عكاشة بن مِحْصن الأسدي، وثابت بن قرم الأنصاري رضي الله عنهما، فانتهوا إلى قطن(*)، فصادفوا فيها حِبالاً متوجهاً إلى طليحة بثقله، فقتلوه وأخذوا ما معه، فسار وراءهم طليحة وأخوه سلمة فقتلا عكاشة وثابتاً»[4]..

وعندما لحق خالد بجيش طليحة، استطاع أن يهزمه بعد معركة شرسة، ويُجمع الإخباريون أن طليحة قد استسلم، وحُقن دمه:

«فلما غلب الحق طليحة ترجّل، ثم أسلم وأهلَّ بعُمْرةٍ، فركب يسير في الناس آمناً، حتى مرّ بأبي بكر بالمدينة، ثم سار إلى مكة فقضى عمرته، ثم حسن إسلامه»[5].

مسيلمة بن حبيب الحنفي:

ذكر أهل الأخبار أن مسيلمة «كان ممن ادعّى النبوة بمكة قبل الهجرة، وصنع أسجاعاً، وكان قد طاف قبل ادعائه النبوة في الأسواق التي كانت بيْن دور العرب والعجم، يلتقون فيها للتسوق والبياعات، كنحوِ سوق الأبلة، وسوق لقّة، وسوق الأنبار، وسوق الحيرة، وكان يلتمس تعلم الحيل والنّيرجات، واختيارات النجوم والمتنبئين، وكان قد أحكم حيل السدنة والحواء وأصحاب الزجر والخط ومذهب الكاهن والعياف والساحر، وصاحبَ الجنّ الذي يزعم أنّ معه تابعه»[6].

وهناك من الإخباريين من يرى أن مسيلمة قد بدأ دعوته قبل نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم، وسندهم في ذلك أن قريشاً حين سمعت أول مرّة «بسم الله الرحمن الرحيم، قال قائلهم، دقّ فوك، إنما تذكر رحمان اليمامة»[7]، وهو لقب مسيلمة الكذاب، الذي كان يدعو إلى عبادة الرحمن، فلّقبه أتباعه بالرحمن فيما كان معروفاً في مكة باسم «رحمن اليمامة».

(*) قَطن: بالتحريك، جبل لبني عبس كثير النخل والمياه، بين الرمّه وبين أرض بني أسد.

وعبادة الرحمن ديانة توحيدية كانت معروفة في اليمامة وشرق الجزيرة، مثلما كانت معروفةً في اليمن وأعالي الحجاز، وقد وردت في نصوص عربية قديمة، جنوبية وشمالية[8]، وعلى مايبدو، فإن مسيلمة بدعوته إلى هذه العبادة، قد عُرف أمره بمكة، فلمّا نزل الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم، قال المشركون: إنما أخذ علمه عن رحمان اليمامة[9].

كان مسيلمة يَسْعَى، معتمداً على نبوّته الكاذبة، إلى إنشاء دولته الخاصة في شرق الجزيرة وقد استطاع بالفعل أن يجمع حوله الأتباع والأنصار المتحمسين، وعندما انتصر الإسلام في مكة بعد عام الفتح، حاول الدخول بمفاوضات مع المسلمين لاقتسام النفوذ السياسي في شبه الجزيرة العربية، فكتب كتاباً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم جاء فيه:

«من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أمّا بعد فإنّي قد أُشركت معك في الأمر، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشاً قومٌ يعتدون»[10]،

فكتب إليه رسول الله:

«بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، أما بعد فالسلام على من اتبع الهدى، أمّا بعد، فإن الأرض لله يورّثها من يشاء والعاقبة للمتقين»[11]..

وتذكر روايةٌ أخرى أن مسيلمة قال للرسول يوم وَفَدَ عليه مع وفد رجال حنيفة: «إن شئت خلينا لك الأمر، وبايعناك على أنه لنا بعدك، فقال له رسول الله صلى الله وعليه وسلم: لا، ولكن الله قاتلك»[12].

يظهر بوضوح مما سبق، أن النبوّة كانت تعني بالنسبة لمسيلمة أولاً وأخيراً، الزعامة السياسية، فهو في الرواية الأولى مستعدٌّ لاقتسامها (النبوّة) مع الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي الرواية الثانية يبدو مستعداً للتخلي عنها نهائياً!، على أن يكون هو خليفة رسول الله، والحاكم من بعده، إن

المحرّكَ الجوهري الذي كان وراء ادعياء النبوة السابقي الذكر، هو طموحهم السياسي، وعندما تبين لهم أن معركتهم خاسرة، لم يكن هناك أي مانع للمساومة على النبوّة، كما هو حال مسيلمة، أو التخلي عنها نهائياً كما هو حالُ طليحة.

لقد استطاع مسيلمة، ولفترة زمنية قصيرة، أن يؤسس إمارته الخاصة في شرق الجزيرة، معتمداً على ولاء بني حنيفة القبلي في اليمامة وجوارها من جهة، وعلى مقدراته الشخصية وثقافته الدينية التوحيدية من جهة أخرى وقد تمكن مسيلمة، ولفترة زمنية قصيرة، أن يؤسس أمارته الخاصة في شرق الجزيرة، معتمداً على ولاء بني حنيفة القبلي في اليمامة وجوارها من جهة، وعلى مقدراته الشخصية وثقافته الدينية التوحيدية من جهةٍ أخرى، وقد أقام الصلاة خمس مرات في اليوم ثم أنقصها فجعلها ثلاثاً[13]، واتخذ له مؤذناً يؤذن بين الناس وقوي أمره واشتد تعلق أتباعه به إلى درجة أنه استطاع أن يتغلب على جيشين من الجيوش الإسلامية التي سيّرت لقتاله، وهما جيش عكرمة بن أبي جهل، وجيش شرحبيل بن حسنة، ولم يتم التغلب عليه إلّا في الحملةِ الثالثة، التي قادها خالد بن الوليد، وبعد قتال عنيف جداً، قتل فيه آلاف(*) من أتباع مسيلمة واستشهد مايقرب من ألف مسلم، إلى أن تمكن المسلمون من قتله(**) وتحقيق النصر النهائي في شرق الجزيرة.

(*) يذكر المؤرخون في هذا الصدد أرقاماً لايقبلها العقل، إذا ماقورنت بمقاييس ذلك الزمن، فقد ورد في عيون التواريخ لابن شاكر أنه «لما قدم خالد أمره أبو بكر بالمسير إلى مسيلمة فمضى حتى نزل منزلاً من اليمامة فعسكر به، فخرج إليه مسيلمة وكان عدد بني حنيفة أربعين ألفاً»! وأنه قد قتل من المسلمين يوم اليمامة «أكثر من ألف وقتل من المشركين نحو عشرين ألفاً». (ص 493 ، ص 494).

(**) قتل مسيلمة على يد وحشي

هوامش الفصل السابع

(1) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام - الذهبي - عصر الراشدين ص (14)

(2) المصدر السابق ص (16)

(3) المصدر السابق (ص 19)

(4) المصدر السابق ص (29)

(5) المصدر السابق ص (30)

(6) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - د. جواد علي - المجلد السادس - ص (84): عن الحيوان.

(7) المصدر السابق ص (86): عن الروض الآنف (340/2)، اليعقوبي (120/1)

(8) المصدر السابق ص (37)

(9) المصدر السابق ص (86)

(10) المصدر السابق ص (90): عن امتاع الاسماع (508/1)، اليعقوبي (120/1)

(11) المصدر السابق ص (90)

(12) المصدر السابق ص (91)

(13) المصدر السابق ص (90)

الفصل الثامن

فكر الحنفاء الديني
كما ورد في الشعر والنثر الجاهليين

من المؤسف أنه لم يصلنا عن الحنفاء أنفسهم، عقيدتهم الدينية، أو أي من كتبهم الدينية التي كانوا يتداولونها، وماوصلنا عن عقائدهم وطقوسهم، إنما ورد في كتب السيرة، على شكل نتف إخبارية، تناقلها معاصروهم والأجيال اللاحقة شفاهاً، لكن ولحسن الحظ، فإن الشعر الجاهلي استطاع أن يحفظ لنا بعضاً من العقائد الحنيفية، كما وردت على ألسنةِ الحنفاء أنفسهم، وقد قمنا بانتقاء نماذج منها، بعد استبعاد ما أجمع النقاد المعاصرون على كونه منحولاً(*). والمواضيع الرئيسة التي يتعرض لها الشعر الحنيفي في هذا الفصل هي:

1 ـ التوحيد بالله ورفض عبادة الأصنام.

(*) أهم الحنفاء الشعراء هو أمية بن أبي الصلت، الذي ترك تراثاً شعرياً دينياً غزيراً، يتناول معظم المسائل الدينية الرئيسية المطروقة في ذلك العصر، وأهمية أمية، أوجبت وجود الكثير من الشعر المنحول الذي نسب إليه، لإقحامه عنوةً بين نصارى الجاهلية، وقد كنّا شديدي الحذرين التعامل مع هذه النقطة، في استبعاد الشق المتّهم، وعدم إيراده في هذا الفصل.

2 ـ الإيمان بالبعث ويوم الحساب
3 ـ خلق الكون.
4 ـ القصص الديني، وقصص الأنبياء
5 ـ الموقف من تحريم الخمر وأكل الميتة.
6 ـ الملائكة والشياطين.
7 ـ الحكمة والموقف الأخلاقي والمعرفي.

شعر الحنفاء

أولاً ـ التوحيد بالله، ورفض عبادة الأوثان:

أمية بن أبي الصّلت[1]:

- إذا قِيل من ربُّ هذي السما
فليس سواه له يضطربُ
- ولو قِيلَ ربُّ سوى ربِّنا
لقال العبادُ جميعاً كذبُ

زيد بن عمرو بن نفيل[2]:

- أربّاً واحداً أم ألفُ ربٍّ
أدين إذا تقسّمتِ الأمور
- عزلت اللات والعزّى جميعاً
كذلكَ يفعل الجلدُ الصبور
- فلا عزّى أدين ولا ابنتيها
ولاصنمي بني عمرو أزور

عبد الطابخة بن ثعلب بن وبرة القضاعي[3]:

- وأدعوك ياربي بما أنت أهله
دعاء غريق قد تشبث بالعصم
- لأنك أهل الحمد والخير كله
وذو الطول لم تعجل بسخط ولم تلم
- وأنت الذي لم يحيه الدهر ثانياً
ولم يرَ عبد منك في صالح وجم
- وأنت القديم الأول الماجد الذي
تبدأ خلق الناس في أكثم العدم
- وأنت الذي أحللتني غيب ظلمة
إلى ظلمة من صلب آدم في ظلم

أمية بن أبي الصلت[4]:

- لله نعمتنا تباركَ رَبُّنا
رَبُّ الأنام وربُّ مَنْ يَتَأبَّدُ(*)

ثانياً ـ الإيمان بالبعث ويوم الحساب

قس بن ساعدة الإيادي[5]:

- ياباكي الموت والأموات في جدث
عليهم من بقايا خزِّهم خُرَقُ
- دعهم: فإن لهم يوماً يصاح بهم
كما ينبه من نوماته الصدق
- حتى يجيئوا بحال غير حالهم
خلق مضى ثم هذا بعد ذا خلقوا

زيد بن عمرو بن نفيل[6]:

- فلن تكون لنفسٍ منك واقية
يوم الحساب إذا مايجمع البشر

أمية بن أبي الصلت[7]:

- كلّ دين يوم القيامة عند الله
إلا دين الحنيفية: زور

زيد بن عمرو بن نفيل[8]:

- فتقوى الله ربكم احفظوها
متى ماتحفظوها لاتبور
- ترى الأبرار دارهم جنان
وللكفار حامية سعير
- وخزيٌ في الحياة وإن يموتوا
يلاقوا ماتضيق به الصدور

(*) تأبّد: يراد هنا التفرّد للعبادة

حاتم الطائي[9]

- أما والذي لايعلم الغيب غيرُه
ويحيي العظام البيض، وهي رميم

زهير بن أبـي سلمى[10]:

- يؤخِّر فيُوضَعْ في كتابٍ فيُدَّخَرْ
ليوم الحسابِ أو يُعجِّل فيُنقَمِ

ثالثاً ـ خلق الكون:

أمية بن أبـي الصلت[11]:

- دارٌ دَحَاها ثم أعْمَرنا بها
وأقام بالأخرى التي هي أمجَدُ[آ]

أمية ابن أبـي الصلت[12]:

- والأرضُ نوَّخها الإلَه طروقةً
للماءِ حتَّى كُلُّ زندٍ مُسْفَدُ[ب]
- والأرضُ مُعَقِلُنا وكانت أُمّنا
فيها مقابِرنُا وفيها نُولَدُ[ج]
- فيها تلاميذٌ على قُذُفاتها
حُبِسُوا قياماً فالفرائصُ تُرْعدُ[د]
- فبنى الإلهُ عليهمُ مخصُوفَةً
خلقاءَ لاتبلى ولاتتأوَّدُ[هـ]

(آ) دحاها: بسطها.

(ب) نوَّخها: أبركها ـ الطروقة: أنثى الفحل ـ هنا جعل الله الأرض أنثى للماء، فإذا أمطرت أنبتت ـ المسفد: المنكح.

(ج) الأرض هي المبتدأ وإليها المرجع، منها الأقوات وفيها الكفاية.

(د) التلاميذ: الخدم والأتباع، وأريد بهم هنا النسّاك الذين يأوون إلى رؤوس الجبال ـ القذفات: كل ما أشرف في رؤوس الجبال.

(هـ) المخصوفة: السماء المؤلفة من عدّة طبقات ـ الخلقاء: الملساء ـ تتأود: تتجعد.

- فأتمَّ ستّاً فاستوتْ أطباقُها
وأتى بسابعةٍ فأنّى توَرَدُ[آ]

- فكأن بِرْقِعَ والملائكُ حَوْلَها
سَدِرٌ تواكَلَهُ القوائِمُ أجرَدُ[ب]

- خضراءُ ثانيةٌ تظِلُّ رؤوسَهمْ
فوق الذُّوائب فاستوت لاتُحْصدُ[ج]

- كزجاجةِ الغسّولِ أَحسَنَ صُنْعها
لمّا بَناهَا رَبُّنَا يتجرّدُ[د]

- لمُصفَّدينَ عليهمُ صَاقُورةٌ
صَمَّاءُ ثالثةٌ تُمَاعُ وتُجمَدُ[هـ]

- وكأنّ رابعةٌ لها حاقُورَةٌ
في جَنْبِ خامسةٍ عَنَاصٍ تُمْرَدُ[و]

- فيها النُّجومُ تُطيعُ غَيْرَ مُراحةٍ
ماقال صَيْدَقُها الأمين الأرشدُ

- رَسَخَ المهَا فيها فأصبح لَوْنُها
في الوارساتِ كأنّهنَّ الإثْمِدُ[ز]

- شَدَّ القُطوُعَ على المطايا رَبُّنَا
كُلٌّ بنعماءِ الإلهِ مُقَيَّدُ[ح]

(آ) أي خلق الله ست سماوات.

(ب) برقع: اسم من أسماء السماء وهي هنا السماء الدنيا - السدر: البحر - القوائم: الرياح - الأجرد: الأملس الذي لاموج فيه.

(ج) خضراء: السماء الثانية - لاتحصد: لاتُقتطف ثمارها.

(د) يتجرّد: يجدّ في الأمر.

(هـ) الصاقورة: السماء الثالثة - الصمّاء: الصلبة التي لاتخلخل فيها.

(و) الحاقورة: اسم السماء الرابعة - الجنب: القرب - عناص: الشعر المنتصب في تفرق - تُمرد: تلّين

(ز) رَسَخَ: هنا بمعنى أرسَخَ - المها: الكواكب - الوارسات: جمع ورسة، وهي الأرض ينتشر فيها نبات الورس الأصفر اللون، والمعنى هنا أن لون هذه السماء يضرب إلى الصفرة - الإثمد: الكحل.

(ح) هنا تشبيه لتهيئة الله تعالى للمساوات بتهيئة الراكب لمطيته - النعماء: النعمة

- فاستَنَّ وافترشَ الرحائل شَرجَعٌ
نُفَجٌ على أثباجهنَّ مُوَكَّدُ[آ]
- بفُصوصِ ياقوتٍ وكَظٌّ بِغرشِهِ
هَوْلٌ ونارٌ دونه تتوقَّدُ[ب]
- فَعَلا طُوالاتِ القَوائِمِ فاستوى
فوق الخُلودِ ومَنْ أراد مُخَلَّدُ[ج]

أمية ابن أبي الصلت[13]:

- إنَّ آيات ربِّنا ثاقِباتٌ
مايُماري فيهنَّ إلا الكَفُورُ
- خلق اللَّيلَ والنَّهارَ فكُلٌّ
مستبينٌ حسابه مقدُورُ
- ثم يجلو النَّهارَ ربٌّ رحيمٌ
بمهاةٍ شُعاعُها مَنْشُورُ[د]

رابعاً ـ الملائكة والشياطين:

أمية بن أبي الصلت[14]:

- وترى شياطيناً تَروغُ مُضَافَةً
ورَواغُها شتَّى إذا ما تُطْرَدُ
- يُلْقَى عليها في السماء مَذَلَّةٌ
وكواكبٌ ترمى بها فتُعرِّدُ[هـ]

(آ) استّن الرجل في عدوه: مضى على وجهه ـ افترش: وطئ ـ الرحائل: السروج ـ الشرجع: سرير العرش ـ النفج: المرتفع ـ الأثباج: جمع ثبج وهو من كل شيء وسطه وأعظمه.

(ب) كظّ: امتلأ... يشير البيت هنا إلى المشهد الخارقة العظمى للعرض السماوي، تحفة الأنوار الساطعة.

(ج) الطوالات: التي قوائمها طويلة، وأريد بها هنا السماوات المرتفعة.

(د) المهاة: الشمس.

(هـ) تعرّد: تفرّد وتهرب.

خامساً ـ قصص الأنبياء:

أمية بن أبي الصلت[15]:

- جزى اللهُ الأجلُّ المرءَ نُوحاً
جزاءَ البِرِّ ليس له كِذابُ[آ]
- بما حَمَلَتْ سفينتُهُ وأنجتْ
غداةَ أتاهُمُ الموتُ القُلابُ[ب]
- وفيها من أرومته عُراةٌ
لديهِ، لا الظماءُ ولا السَّغابُ[ج]
- عشيَّةَ أُرْسِلَ الطّوفانُ تجري
وفاضَ الماءُ ليس لهُ جِرابُ[د]
- على أمواجِ أخضرَ ذي حبيكٍ
كأنْ سُعارَ زاخِرِهِ الهضابُ[هـ]
- بآيةِ قام يُنطقُ كلَّ شيءٍ
وخان أمانةَ الدِّيكِ الغرابُ[و]
- وأُرسلتِ الحمامةُ بعد سَبعٍ
تَدلُّ على المهالِكِ لاتهابُ[ز]
- تلَمّسُ هل ترى في الأرض عيناً
وغايتها من الماء العُبابُ[ح]

(آ) الكذاب: مصدر كالكذب.
(ب) القلاب: الموت المحقق.
(ج) الأرومة: الأصل ـ السغاب: الجياع.
(د) ليس له جراب: أي ليس له حدود ـ وفاعل تجري يعود على السفينة.
(هـ) الحبيك: مفردها حبيكة وهي مايرى على الماء من حروف إذا مرّت الريح.
(و) الآية: العلامة ـ وهنا يشير البيت إلى الأسطورة العربية التي تقول أن الحيوانات كانت تتكلم في عصر ما مغرق في القدم.
(ز) يشير البيت إلى الدور الذي لعبته الحمامة في إرشاد السفينة.
(ح) إشارة إلى بحث الحمامة عن اليابسة.

- فجاءت بعدما ركضتْ بقطفٍ
عليه الثأط والطينُ الكُبابُ[آ]
- فلما فرّسُوا الآيات صاغوا
لها طوقاً كما عُقِدَ السِّخابُ[ب]

زيد بن عمرو بن نفيل[16]:

- وأنت بفضلٍ منك نجيّت يونساً
وقد بات في أضعافَ حوت لياليا
- وأنبت يقطيناً عليه برحمةٍ
من اللهِ لولا ذاك أصبح ضاحيا

أمية بن أبي الصلت[17]:

- ولابراهيم المُوَفّيَ بالنذْ
رِ احتساباً وحامِلَ الأجذَال[ج]
- أبنيَّ إني نذرتك للـ
ـه شحيطاً فاصبر فذلك حالي[د]
- فأجاب الغلام أن قال فيه
كلُّ شيء لله غير انتحال[هـ]
- فاقضِ ماقد نذرت لله واكفف
عن دمي أن يمسّهُ سربالي[و]

أمية بن أبي الصلت[18]:

- وبإذنه سَجَدُوا لآدم كُلُّهم
إلا لعيناً خاطئاً مَذْحُورا

(آ) الثأط: الطين الأسود المتعفن ـ القطف: ماقطف من أغصان وثمار وهي العلامة التي جاءت بها الحمامة دليلاً على وجود اليابسة وتراجع الطوفان.
(ب) فرّسوا الآيات: تأكدوا من العلامات التي جاءت بها الحمامة ـ السخاب: القلادة.
(ج) الأجذال: مفردها جذل، وهو ماعظم من أصول الشجر المقطع.
(د) شحيطاً: ذبيحاً، هنا ذكر لقصة ابراهيم ونذره المعروف.
(هـ) انتحال: إدعاء.
(و) السربال: القميص.

سادساً: الحكمة والموقف الأخلاقي المعرفي

أبو قيس بن الأسلت[19]:

- يابني الأرحام لاتقطعوها
وصلوها قصيرة من طوال
- واتقوا الله في ضعاف اليتامى
ربما يستحل غير الحلال
- واعلموا أن لليتيم ولياً
عالماً يهتدى بغير السؤال
- ثم مال اليتم لاتأكلوه
إنّ مال اليتيم يرعاه والي

عبيد بن الأبرص الأسدي[20]

- لايعظ الناس من لايعظ الـ
دهر ولاينفع التلبيب[آ]
- إلا سجيات ماالقلوب
وكم يصيرن شائناً حبيب[ب]
- ساعد بأرض إذا كنت بها
ولاتقل أنني غريب
- قد يوصل النازح النائي وقد
يقطع ذو السهمة القريب[ج]

أمية بن أبي الصلت[21]:

- ولَيْس ذو العلم بالتقوى كجاهلها
ولاالبصيرُ كأعمى ماله بَصَرُ
- فاستخبر النَّاسُ عما أنت جاهلُهُ
إذا عَمِيتَ فقد يَجْلوا العمى الخَبَرُ

(آ) التلبيب: إدعّاء المعرفة والذكاء.
(ب) يريد هنا أن التعقّل لاينفع صاحبه إلّا إذا كان سجيّةً له وطباً.
(ج) السهمه: القرابة.

زهير بن أبي سلمى[22]

- وما الحرب إلا ماعلمتم وذقتم
وماهو عنها بالحديث المُرجَّمِ
- متى تبعثوها نميمة
وتَضْرَ إذا ضرّيتموها فتضرم
- فتعرككم عرك الرحى بثفالها
وتلقح كشافاً ثم تحمل فتُتئم[آ]
- فتنتج لكم غلمان أشام كلهم
كأحمر عاد ثم تُرضِعْ فتَفْطِمِ[ب]

ـ أبو قيس بن الأسلت[23]:

- أعيذكم بالله من شد صنعكم
وشد تباغيكم ودس العقارب
- وإظهار أخلاق ونجوى سقيمة
كوخز الأشافي وقعها حق صائب[ج]
- فذكرهم بالله أول وهلة
وإحلال أحرام الظباء الشوازب[د]
- وقل لهم والله يحكم حكمه
ذروا الحرب تذهب عنكم في المراحب[هـ]
- تقطع أرحاماً وتهلك أمةً
وتبري السديف من سنام وغارب[و]

(آ) الثفال: حجر الرطن الأسفل ـ الكشاف: الإكراه.
(ب) الأشام: من يأتي بالشؤم
(ج) الأشافي: مفردها أشفي، وهو المحرز أحرام الظباء التي يحرم صيدها ضمن الحرم.
(د) الشوازب: الضامرة البطون.
(هـ) المراحب: المواضح الفسيحة
(و) السديف: لحم السنام ـ الغارب: أعلى الظهر.

سابعاً: وجهة نظر فيما يتعلق بالكواكب

أمية بن أبي الصلت[24]:

- لمواعدٍ تجري النجومُ أمامَهُ
ومُعَمّمٌ بحذائهنّ مُسَوَّدُ[آ]
- مستخفياً وبنات نَعْشٍ حَوْلَهُ
وعن اليمين إذا يغيبُ الفَرْقَدُ[ب]
- حَالَ الدرّاري دُوَنَه فتجُنُّهُ
لاأنْ يراهُ كُلُّ من يَتَلَدَّدُ[ج]
- حُبِسَ السَّرافيلُ الصَّوافي تَحْتَهُ
لاواهنٌ منهم ولامُستَوْعِدُ[د]
- زُحَلٌ وثورٌ تحت رِجلِ يمينِهِ
والنَّسرُ للأخرى وليثٌ مُرْصِدُ[هـ]

(آ) المعمم: السيد الذي يقلّده القوم أمورهم ـ المسوّد: السيد، الرئيس وأريد بالمعمم هنا نجم القطب، وهو مسوّد لأنه النجم الوحيد الذي يبدو ثابتاً لايتحرك.

(ب) استخفى: استتر، ومستخفياً لكأنه يريد الاستتار، لأن نجم القطب من القدر الثاني، ويحيط به طائفة من نجوم القدر الأول، كالنسر الواقع، والسمّاك الرامح، وقلب الأسد، ومؤخر التوأمين، ومنكب الجوزاء، وماإليها ـ بنات نعش: أراد بها بنات نعش الصغرى، فهذه النجوم تتألف من سبعة أنور، أربعة منها على هيئة النعش تعرف بالنعش الأصغر، ومنها تمتد ثلاثة أخرى تؤلف بنات نعش الصغرى وثالثها نجم القطب، والفرقدان هما قاعدة النعش التي تقابل نجم القطب مباشرة.

(ج) الدّراري: الكواكب الشديدة الإنارة ـ تجنّهُ: تستره ـ تلدد: تلفت يميناً وشمالاً في حيرة.

(د) السرافيل: الملائكة ـ الصوافي: مفردها صاف: الذي لاكدر فيه ـ المستوعد: الذي يطلب مكافأة على عمله.

(هـ) المُرصِدُ: المتهيئ للوثوب، وقال الجاحظ «قالوا: وقد جاء في الخبر أن الملائكة منهم من هو في صورةِ الرجال، ومنهم من هو في صورة الثيران، ومنهم من هو في صورة النسور يدل على ذلك تصديق النبي (ص) لأمية بن أبي الصّلت حين أنشد البيت» (الحيوان 6: 212) ونقل عن ابن مجد بسنده عن ابن عباس أن النبي (ص) أنشد هذا البيت فقال «صدق هكذا صفة أهل العرش» (الإصابة: 133).

ثامناً ـ الموقف من شرب الخمر وأكل الميتة:

الأسلوم البالي[25]:

ـ سالمت قومي بعد طول مضاضة
والسلم أبقى في الأمور وأعرف
ـ وتركت شرب الراح وهي أثيرة
والمومسات وترك ذلك أشرف
ـ وعففت عنه يا أميم تكرماً
وكذاك يفعل ذو الحجى المتعفف

قيس بن عاصم[26]

ـ رأيت الخمر مصلحة وفيها
خصال تفسد الرجل الكريما
ـ فلا والله أشربها حياتي
ولاأدعو لها أبداً نديماً
ـ فإن الخمر تفضح شاربيها
وتجنيهم بها الأمر العظيما
ـ إذا دارت حمياها تعلت
طوالع تسفه المرء الحليما

ـ حارثة بن أوس الكلبي[27]:

ـ لاآكل الميتة ماعمرت
نفسي وأن أبرح املاقي
ـ والعقر لاانقض منه القوى
حتى يواري القبر أطباقي

ـ أمية ابن أبي الصلت[28]

ـ فاغْفِرْ لعبدٍ إنَّ أوَّل ذَنْبِهِ
شربٍ وإيسارٌ يشاركها دَدُ[آ]

(آ) الشرب: شرب الخمرة ـ الإيسار: الغنى ـ الددّ: اللهو واللعب.

نثر الحنفاء

خطبة قس بن ساعدة الإيادي - في سوق عكاظ[29]

«أيُّها الناسُ اسمعُوا وعُوا[آ]، مَنْ عاشَ مات، ومَنْ مات فات[ب] وكلُّ ماهو آتٍ آتٍ[ج] آياتٌ مُحكَمَاتٍ[د]، مَطَرٌ ونَبَاتٌ، وآباءٌ وأمّهاتٌ، وذاهبٌ وآتٍ[هـ] ضوءٌ وظلامٌ، وبرٌّ وآثام، ولباسٌ ومَرْكَبٌ. ومَطْعَمٌ وَمَشْرَبٌ، ونجومٌ تمورُ[و] وبحورٌ لاتغورُ[ز] وسقفٌ مرفوعٌ ومِهادٌ موضوعٌ[ح] وليلٌ داجٍ[ط]، وسماءٌ ذاتُ أبراجٍ[ي] إنّ في السماءِ لخَبَرا[ك]، وإنّ في الأرض لَعِبَرا[ل] مابالُ النّاس يذْهَبُونَ ولاَيَرجعُونَ؟ أَرَضوا بالمُقام فأقاموا؟ أم تُرِكوا فَنَاموا؟ يا مَعْشَرَ إياد! أيَنَ ثمودُ وعادُ؟ وأينَ الآباءُ والأجدادُ؟ أين المعروفُ الذي لم يشكر والظلمُ الذي لم ينكر؟ يُقْسِمُ قسٌ باللهِ قسماً لا إثم فيه إنّ لله ديناً هو أرضى لهُ وأفضلُ من دينكم الذي أنتم عليه، فطوبى[م] لمن أَدْرَكه فاتّبَعَهُ وويل لِمَنْ خَالَفَهُ.

(آ) عوا: من قولك: وعيت القول: إذا فهمته وحفظته.

(ب) وعظ وتنبيه على الاعتبار ودلالة على الصانع الخالق العظيم لما ركب في الخلق من الموت والحياة.

(ج) إثبات للقدر. أي كل آت لامفر منه.

(د) الآيات: جمع آية وهي العبرة. ومحكمات: مفصلة، واضحة بيّنة.

(هـ) الذاهب: الميت، الآتي: المولود.

(و) تمور: تذهب وتجيء، تجول وتسبح. والمور سرعة الحركة.

(ز) تغور: يذهب ماؤها. تقول: غار الماء ذهب في الأرض.

(ح) أراد بها السماء.

(ط) المهاد: الأرض المنخفضة قال تعالى: (ألم نجعل الأرض مهادا) أي مبسوطة.

(ي) داج: مظلم.

(ك) بروج السماء: صور تقع في هيئة حيوان وهي اثنا عشر برجاً، وهي دائرة ترسمها الشمس في سيرها في السماء في سنة كاملة. وذات: صفة.

(ل) في هذا ردّ على الملحدين وأهل التعطيل الذين يزعمون أن ليس غير السماء والأرض ومابعد. هما فدل على أن في السماء لخبرا غير ماتعلمون.

(م) الطوبى: الغبطة والسعادة والخير وهي في أصلها شجرة في الجنة.

هوامش الفصل الثامن

(1) ديوان أمية بن أبي الصلت ـ عبد الحفيظ السطلي ـ ص (242).
(2) في الفكر الديني الجاهلي قبل الإسلام ـ د. محمد ابراهيم الفيومي ـ (213).
(3) المصدر السابق ـ ص (231).
(4) ديوان أمية ابن أبي الصلت ـ عبد الحفيظ السطلي ـ ص (353) ـ عن الموشح.
(5) في الفكر الديني الجاهلي قبل الإسلام ـ د. محمد ابراهيم الفيومي ـ ص (230).
(6) المصدر السابق ـ ص (229).
(7) المصدر السابق ـ ص (229).
(8) المصدر السابق ـ ص (214).
(9) شرح ديوان حاتم الطائي ـ ابراهيم الجزيني ـ ص (87).
(10) ديوان زهير بن أبي سلمى ـ الإمام الشبياني ـ ص (12).
(11) ديوان أمية ـ ص (352) ـ عن تفسير الطبري (30: 46)
(12) المصدر السابق ـ ص (356) ـ عن الحيوان (3: 363)
(13) المصدر السابق ـ ص (391)
(14) المصدر السابق ـ ص (361) ـ عن الحيوان (6: 275)
(15) المصدر السابق ـ ص (336) ـ عن الحيوان (2: 321).
(16) الشعراء الحنفاء ـ د. أحمد جمال العمري ـ ص (180) ـ عن بلوغ الأرب (2/ 249).
(17) المصدر السابق ـ ص (183) ـ عن تاريخ الطبري (1/395)
(18) ديوان أمية ـ ص (409)
(19) الشعراء الحنفاء ـ ص (192) ـ عن السيرة (1/511)
(20) المصدر السابق ـ ص (188)
(21) ديوان أمية ـ ص (387) ـ عن جامع بيان العلم (1: 88)

(22) المعلقات العشر - 230 ومابعدها.

(23) الشعراء الحنفاء - ص (190) - عن السيرة النبوية (483/1)

(24) ديوان أمية - ص (364) - عن الحماسة البصرية (الورقة 257: ب)

(25) في الفكر الديني الجاهلي قبل الإسلام - ص (213)

(26) الشعراء الحنفاء - ص (193)

(27) المصدر السابق - ص (192)

(28) ديوان أمية - ص (367) - عن الحماسة البصرية.

(29) النثر في العصر الجاهلي - هاشم صالح مناع - ص (88)، (89)

الفصل التاسع

حنفاء أفراد أم جماعات دينية حول وجود أشكال تنظيميّة حنيفيّة

هناك اتفاق عام بين الباحثين، على أن الحنفاء لم يكونوا جميعاً متماثلين رأياً واعتقاداً، كما أنهم، لم يكوّنوا جماعةً منسجمة، تنتظمها حركة نشاط وتواصل، وعلى هذا، يبدو الحنفاء عند هؤلاء كظاهرة: أفرادٌ، فرادى، لاتجمعهم رابطة أو تضمّهم فرقة، يمارسون نشاطهم الإصلاحي بشكل منفصل، كلٌّ بمعزل عن الآخر، وإن كانوا يشتركون فيما بينهم على المستوى الإيماني، بالتوحيدي بالله ورفض الشرك وعبادة الأصنام.

إننا سوف نتوقف، لمناقشة هذه القضية، الشديدة الأهمية، من خلال نقاط ثلاث:

أولاً - الإشارات النادرة التي وردت لدى الإخباريين، عن وجود شكل من أشكال العمل الجماعي عند الحنفاء، تجلّى في البداية في صياغة مبادئهم العقيدية ثم في نشاطهم التبشيري الدعاوي لنشر عقيدتهم في أرجاء الجزيرة.

ثانياً - وجود شكل من أشكال العقيدة الدينية المكتوبة، الخاصة بالحنفاء دون غيرهم، والتي كان هؤلاء يتداولونها، ويسعون إلى التبشير بها.

ثالثاً ـ اشتراكهم فيما بينهم بطقوس دينية، حنيفيّة، ميزتهم عن وسطهم الجاهلي من جهة، وعن التيارات التوحيدية اليهودية والنصرانية من جهةٍ أخرى.

أولاً ـ نشاط حنيفي مشترك: الدعاوة الحنيفية:

ورد في السيرة النبوية: أنه «اجتمعت قريش يوماً عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظمونه ويعكفون عنده، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً، وكانوا ينحرون له»[1]، فانتحى جانباً أربعةٌ منهم، وهم: ورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث، وعبيد الله بن جحش، وزيد بن عمرو بن نفيل «فلّما خلَدَ بعضهم إلى بعض، وتصادقوا، قالوا ليكتم بعضكم على بعض، واتفقوا على ذلك، ثم قال قائلهم: تعلمون والله ماقومكم على شيء، لقد أخطأوا دين ابراهيم وخالفوه. ماوثنٌ يعبد؟ لايضرّ ولاينفع، فابتغوا لأنفسكم. فإنكم والله ما أنتم على شيء، فخرجوا يطلبون ويسيرون في الأرض يلتمسون أهل الكتاب»[2].

وهؤلاء القرشيون بحسب ابن هشام «إنما كانوا جماعةً خرجت عن عبادةِ قريش، فلم يشتركوا معهم في أعيادهم، ولم يشاركوهم عباداتهم وظلوا حتى ماتوا عن عبادة قومهم صابئين»[3].

إننا نود أن نشير، إلى أن ماسبق من الاتفاق بين هؤلاء، على الخروج بشكل جماعةٍ عن المعتقدات القرشية، وتعاهدهم على السرّية والكتمان في هذا الشأن، وسعيهم المشترك للبحث عن التوحيد الإبراهيمي، بمدارسة أصحاب الكتاب، إنما ينفي الصفة الفرديّة عن هؤلاء، ويجعل اجتماعهم أقرب إلى شكلٍ من أشكال العمل التأسيسي لفرقةٍ، أو لنواةِ فرقةٍ دينيّيةٍ حنيفيّة، ستقوم فيما بعد بالفعل، بعد استكمالها صياغة عقيدتها، بنشر دعوتها الخاصة، والتبشير بالتوحيد المنزّه، ولو أدى ذلك إلى الصدام المباشر مع القرشيين، وتعرض دعاتها للإيذاء والاضطهاد. إن الأخبار التي وردت

بعد ذلك عن حنفاء قريش، تؤكد وصولهم إلى مرحلةِ الدعوة الصريحة والتبشير بالتوحيد ونبذ العبادات القرشية عقيدةً وطقساً، وكان أبرزهم في هذا الشأن هو زيد بنِ عمرو بن نفيل، الذي كان يمارس دعاوته، مجاهراً قومه باحتقاره عباداتهم:

- فلا عزّى أدين ولاابنتيها
ولاصنمي بني عمرو وأزورُ
- أربّاً واحداً أم ألف ربٍّ
أدين إذا ما انقسمت الأمورُ
- عزلت اللات والعزى جميعاً
كذلك يعقل الجلد الصبور[4]

ومعاتباً إياهم على ذبحهم لغير الله بقوله:

«يا معشر قريش: أيرسل الله قطر السماء، وينبت بقل الأرض، ويخلق السائمة فترعى فيه، وتذبحوها لغيره! والله ما أعلم على ظهر الأرض أحداً على دين ابراهيم غيري»[5].

إننا نجد أنفسنا هنا، أمام حالةٍ متميزةٍ، تجاوزت مرحلة الإنكار السلبي، الإفرادي، للعقائد الجاهلية، إلى مرحلة الدعوة العلنية النشطة لنبذ الأوثان، عقيدةً وطقساً، والتأكيد أن العبادة والشعائر إنما ينبغي أن تكون لله وحده. ومما يؤكد علنيّة هذه الدعوة، وجديتها، الموقف العدائيّ الذي وقفه القرشيون من أصحابها، عندما أحسّوا بخطرِها على ديانتهم، وتعرّض زيد بن عمرو نتيجة ذلك للإيذاء والضرب حتى أُكرهَ على ترك مكةَ والنزول بحرّاء «وكان الخطاب بن نفيل، عمّه، قد وكّل به شباباً من شباب قريش، وسفهاء من سفهائهم، كلَّفَهُمْ ألّا يسمحوا له بدخول البلدة، وبمنعه من الاتصال بأهلها، مخافة أن يفسد عليهم دينهم وأن يتابعه أحدٌ منهم على فراق ماهو عليه، واضطر زيد إلى المعيشةِ في هذا المحل، معتزلاً قومه، إلا فترات، كان يهرب

خلالها سرّاً، ليذهب إلى موطنه ومسكنه، فكانوا إذا أحسّوا بوجوده هناك، آلموه وآذوه»[6]. إن جميع الأخبار التي وردت من زيد بن عمرو بن نفيل، لم تشر لامن قريب ولامن بعيد إلى أنه قد ادعّى النُبُوَّة، وعلى ذلك فلا يمكن أن يبدو حماسُهُ الدعاوي، لنشر العقيدة الحنيفية بين القرشيين بمكّة، عملاً فرديّاً أو اجتهاداً شخصياً بحال من الأحوال. إن ممارسةِ الدعاوة النشطة، في العلن تارةً، وفي السرّ تارة أخرى، في وسط مشحون بالعداء، وتحمّل صنوف المشاق والاضطهاد في سبيل ذلك، من قبل شخص لايدعي النبوّة، لايمكن أن يعني إلا وجود نشاط منظم، جماعي، لنشر العقيدة الحنيفية.

وزيد ليس وحيداً في هذا المجال، فهناك آخرون غيره نشطوا في هذا المجال منهم المتلمس بن أمية الكناني ـ الذي كان يخطب علناً، بفناء الكعبة، داعياً الناس:

«أطيعوني ترشدوا، قالوا وماذاك؟ قال: إنكم قد تفردتم بآلهةٍ شتى، وإني لأعلم مالله راضٍ بها، إنّ اللّه يحب أن يعبد وحده... فتفرقت عنه العرب»[7]

والنشاط الدعاوي الحنيفي لم يقتصر على حنفاء قريش، فقس بن ساعدة الإيادي، أبرز حنفاء اليمن، كان يؤدي الدور ذاته، وهذا واضح تماماً في مضمون خطبته الشهيرة التي مطلعها «أيها الناس اجتمعوا واستمعوا وعوا»، والتي ألقاها في سوق عكاظ متخذاً دور الخطيب الواعظ والداعية الموحد، على ملأ السوق:

«وهادٌ موضوع وسقف مرفوع، وليلٌ داج، وسماءٌ ذات أبراج، أقسم قسّ حقاً، لئن كان في الأرض رضىً ليكونن بعد سخط، وإنّ لله ديناً هو أحبُ إليه من دينكم الذي أنتم عليه.. تباً لأرباب الغفلة من الأمم الماضية والقرون الخالية»[8]..

وهناك روايةٌ تفيد بأن الدعوة الحنيفية امتدت إلى مابعد نزول الوحي

على الرسول صلى الله وعليه وسلم، فقد ذكر أن سويد بن الصامت(*) «لقي الرسول صلى الله عليه وسلم يوماً، فدعاه الرسول إلى الإسلام، فقال له سويد: لعلّ الذي معك مثل الذي معي؟. فقال النبي:

وما الذي معك، قال سويد مجلة لقمان(**)، فقال اعرضها علي، فعرضها عليه سويد. فقال: إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل منه، قرآن أنزله الله علي من هدىً ونور»(9)..

لقد كانت الدعاوة الحنيفية نشطة في قلب مكة، مثلما كانت عليه في أنحاء الجزيرة الأخرى في اليمن واليمامة، وقد استمرت لفترة لاتقل عن ربع قرن، وفي ضوء جميع ماسبق سوف تبدو الرحلات العديدة التي كان الحنفاء يقومون بها إلى كافة أنحاء الجزيرة، بوصفها ليست مقتصرة على السعي لاكتساب المعارف ومدارسة أصحاب الديانات التوحيدية، وإنما وهذا هو الأهم هنا، بوصفها رحلات تبشيرية، تسعى لنشر عقائد الفرق الدينية الحنيفية في أنحاء الجزيرة المختلفة، وصولاً إلى مطلع القرن السابع للميلاد.

ثانياً ـ عقيدة دينية مكتوبة، كتب الحنفاء الدينية:

ورد في كتب أهل الأخبار عن الحنفاء أنهم كانوا يقرأون الكتب، وأنهم تبحّروا في التوراةِ والإنجيل، ومنهم من وقف على السريانية والعبرانية، وهذه النقطة أي: كون الحنفاء قارئين كاتبين، من أصحاب الحكمة، إنما هي صفة عامة تشملهم جميعاً، ولااختلاف عليها بين الإخباريين أو الباحثين

(*) ـ سويد بن الصامت: أحد أهم حنفاء الجاهليّة، وهو رجلٌ مثقفٌ مهذب، ذو علم وفهم في أيامه وبني قومه، وقد عرف عندهم بالكامل، للخلال الحميدة التي كانت فيه، وصفه صاحب الأغاني بقوله «وكان يقال له الكامل في الجاهلية، وكان الرجل في الجاهلية إذا كان شاعراً شجاعاً كاتباً سابحاً رامياً أسموه بالكامل، وكان سويد أحد الكملة» (الأغاني 164/2).

(**) مجلة لقمان: وقيل حكمة لقمان، والمجلة هي في ذلك الوقت الكراس الملفوف، أو الكتاب الملفوف.

المعاصرين، لكن الجانب الآخر للموضوع، وهو تداول الحنفاء كتباً دينية تخصهم، وتميزهم عن معاصريهم من النصارى واليهود، بقي حتى الآن موضع آخذٍ ورد، سيما وأن ماورد عن ذلك عند أهل الأخبار شديدة الندرة، ومع ذلك فقد أشار بعضهم إلى وجود ماسميّ بـ (صحف ابراهيم) باعتبارها كتباً حنيفيةٍ خالصة، وسنده في ذلك كون الحنفاء جميعاً من القارئين الكاتبين، مما يعني أنه من الطبيعي أن يقوم هؤلاء بتدوين أفكارهم ومعتقداتهم الدينية الخاصة، التي خرجوا بها بعد مرحلة قاموا خلالها بمدارسة التيارات التوحيدية الأخرى في المنطقة، ومما يؤكد وجود مثل هذه الصحف، الإشارات التي وردت حولها في القرآن الكريم[10] باعتبارها كتباً توحيدية، كانت متداولةً قبل الإسلام.

من ناحيةٍ أخرى، ورد ذكر كتب أخرى مثل «مجلة لقمان» أو «صحف لقمان»، في أكثر من موضع لدى الإخباريين، وإن كان هؤلاء قد أجمعوا أنها لاتضم إلا مجموعة حكم وأمثال مما يصنفها في إطار كتب الحكمة، وليس بحال من الأحوال في مجال الفكر الديني...

إننا بقراءةٍ متأنيةٍ للرواية السابقة المتعلقة بسويد بن الصامت نستطيع أن نتبيّن أن مجلته (مجلة لقمان) إنما تتضمن محتوىً دينياً توحيدياً، وليس مجموعة من حكم وأمثال فحسب، ومحتواها ديني: لأن الرواية السابقة كانت بمعرض دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لسويد إلى الإسلام، وقيام سويد بالمقابل بعرض محتوى مجلته على النبي.

وهذا المحتوى الديني هو توحيديّ، لأن الرسول (ص) علق عليه بعد سماعه بأنه «حسنٌ، والذي معي أفضل منه، قرآن أنزله الله عليّ من هدىً ونور...».

ولايعقل أن يكون محتوى المجلة مقتصراً على الحكم والأمثال[11]، فلا مجال لإجراء مقارنة، كتلك التي وردت على لسان الرسول (ص)، بينها،

وبين القرآن الكريم في مثل هذه الحال، والمقارنة السابقة، هي وبكل وضوح، مقارنة بين عقيدتين، العقيدة التوحيدية لحنفاء الجاهلية ممثلين بسويد من جهة، والكلام القرآني الذي أنزله الله على رسوله من جهة ثانية.

لقد أشار القرآن الكريم إلى لقمان، بوصفه حكيماً، وموحداً يرفض الشرك ويدعو إلى التوحيد المنزّه

﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة: أن أشكر الله، ومن يشكر إنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن الله غني حميد، وإذ قال لابنه وهو يعظه: يابنيّ لاتشركِ بالله، إن الشرك لظلمٍ عظيم﴾[12].

إن الآية السابقة إنما تصنّف لقمان في موقع رفيعٍ من الحكمة التي تميز بها حنفاء الجاهلية، والإيمان التوحيدي الذي بشر به هؤلاء فيما بعد، ولقمان بحسب جميع النصوص لم يكن نبياً قط، لكنه موحدٌ عظيم ومن أهل الجنة، وهذه النقطة وردت في حديث لابن عباس عن الرسول صلى الله وعليه وسلم:

«اتخذوا السودان، فإن ثلاثة منهم سادات أهل الجنة: لقمان الحكيم، والنجاشيّ وبلال المؤذن».

وسواء كانت مجلة لقمان هذه، دونت في عهده وعلى يده هو، أم كتبت في عهد حنفاء القرن السادس للميلاد، فإن المهم هنا، هو وجود عقيدةٍ دينيةٍ مكتوبة، خاصة بالحنفاء، يتداولون كتبها، ويدعون إليها في مواسم الحج والأسواق الموسمية، وهو شيء يضعهم خارج إطار الفردية، والعمل المرتجل، ويجعلهم أقرب إلى جماعة (أو جماعات) دينية، تمتلك عقيدتها المكتوبة، التي سعت لإغنائها من جهة، وإلى التبشير بها من جهةٍ ثانية.

ثالثاً ـ طقوس حنيفية مشتركة:

أجمع أهل الأخبار على أن طقوساً مشتركةً كانت تميز الحنفاء(*) عن محيطهم الجاهليّ وعن ديانات الجزيرة التوحيدية الأخرى في الوقت ذاته، ويمكننا إيجاز هذه الطقوس في النقاط التالية:

1 ـ **الإنزواء التأمليّ** في المواضع الخالية البعيدة عن الناس، في المغاور والشعاب حيث ينقطعون للتعبد والصوم.

2 ـ **الصلاة، والسجود لله وحده**، وقبلتهم في ذلك الكعبة الشريفة، ولهم في ذلك ترتيب وشكل معين يتبعونه، وقد ذكر في هذا الشأن أن زيداً «كان يرقب الشمس فإذا زالت استقبل الكعبة، فصلّى وسجد سجدتين، ثم يقول: هذه قبلة ابراهيم واسماعيل، لاأعبد حجراً ولا أصلّي له، وإنما أصلّي لهذا البيت حتى أموت»[13] وهناك إشارات أخرى إلى شكل طقس الصلاة عند زيد، وردت في حديث أسماء بنت أبي بكر(**) بأنه كان «يسجد على راحته ثم يصلّى إلى الكعبة ويقول: إلهي إله ابراهيم، وديني دين ابراهيم».

3 ـ **القيام بشعائر الحج**، مثلما ورد عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه «كان يحج فيقف بعرفه، وكان يلبي فيقول: لبيك لاشريك لك، ولاندّ لك، ثم يدفع من عرفه ماشياً وهو يقول لبيّك متعبداً مرقوقاً»[14].

4 ـ **الوضوء والاغتسال** من الجنابة

5 ـ **ممارسة الختان**

6 ـ **الامتناع عن شرب الخمر وأكل الميتة وذبائح الأصنام**

إننا في معرض الحديث عن الطقوس الحنيفية، لانستطيع التأكيد على

(*) انظر فصل: الحنفاء كما حدثنا عنهم الرواة.

(**) انظر الفصل السابق.

كونها واحدة بين جميع حنفاء الجزيرة، بل على العكس، فنحن نرى أن خصوصيةً طقسية كانت تميز حنفاء قلب الجزيرة في مكة والطائف ويثرب عن حنفاء اليمامة من جهة، وعن حنفاء اليمن وجنوب الجزيرة من جهة أخرى، لكن، من كل بقعةٍ من هذه البقاع، كان الحنفاء يشتركون فيما بينهم بطقوس ميزتهم عن محيطهم القبلي، مثلما ميزتهم عن أصحاب الديانات التوحيدية اليهودية والنصرانية. إن اختلاف وتنوع المصادر الدينية التي نهلت منها العقائد الحنيفية، في مختلف أنحاء الجزيرة المترامية الأطراف، كان وراء الخصوصية التي ميزت كلاً من التيارات الحنيفية الثلاث الكبرى ضمن إطار الوحدة العقيدية الابراهيمية التي ضمتها جميعها.

وعليه فإنّ وحدة الطقس والعقيدة المكتوبة، في كل بقعةٍ حنيفية، بالإضافة إلى الحركة الدعاوية النشطة للحنفاء، يضعنا بشكل لايقبل اللبس أمام فرقٍ حنيفية، اجتمعت على التوحيد، وإن اختلفت في درجة نضجها، وتمايزت في جوانب نشاطها الطقسي، بين منطقة جغرافية وأخرى، في شبه الجزيرة العربية.

هوامش الفصل التاسع

(1) السيرة - ابن هشام - (242/1 ومابعدها).

(2) المصدر السابق (242/1)

(3) السيرة - ابن هشام - (242/1) - طبعة محمد يحي الدين عبد الحميد

(4) المفصل - د. جواد علي - ص (473)

(5) الأغاني - (119/3 ومابعدها)

(6) السيرة - ابن هشام - (240/1 ومابعدها)

(7) قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي - محمد عبد النعيم الخفاجي.

(8) أدباء العرب - بطرس البستاني - النثر الجاهلي

(9) المفصّل - د. جواد علي - الجزء الثامن - ص (288) - عن البلاذري (238/1).

(10)

(11) المفصّل - د. جواد علي - الجزء الثاني - ص (342)

(12) سورة لقمان - الآية (13 ومابعدها)

(13) المفصّل - د. جواد علي - الجزء السادس - ص (475)

(14) المصدر السابق - ص (475) - عن البداية (239/2)

الباب الثالث

المصادر الفكرية للحنفاء

الفصل العاشر

قنوات التفاعل الذهني في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام

إنّ دراسة، وتقصّي مصادر الحنيفيّة، باعتبارها ظاهرةً وليدةً، تشكلت نتيجة التفاعل الذهني بين المذاهب والتيارات الدينية لشبه الجزيرة، في إطار تاريخيّ ينحو باتجاه استبدال التوحيد بالتعدد، على المستويين الاجتماعي والروحي، إنّ هذه الدراسة سوف تقودنا أولاً، إلى البحث عن القنوات التي كان هذا التفاعل يتم عبرها، بحيث يغدو فاعلاً، ضمن منطقة شديدة الخصوصية تشبه الجزيرة: فسيحة الاتساع، وذات تجمعات بشرية قليلة الكثافة، تتناثر على امتداد مسافات كبيرة، وفي وقت كان فيه الاتصال بين أطرافها شديد البطء، وطرق المواصلات صعبة ومحفوفة بالمخاطر.

لقد توزع الحنفاء في معظم أرجاء الجزيرة، فانتشروا من اليمن ونجران، مروراً بمثلث المدينة ـ مكة ـ الطائف وانتهاء بتخوم بلاد الشام في الشمال الغربي من جهة، ومن اليمامة في الشمال الشرقي مروراً بالبحرين وعمان وحضرموت، وانتهاء باليمن مرةً أخرى، وبناءً على هذا التوزيع، فإننا نستطيع أن نلمح مستويين اثنين للتفاعل الذهني بينهم وبين التيارات التوحيدية في شبه الجزيرة:

المستوى الأول - محليّ، خاص، يتم مع المذاهب الدينية المحليّة، الموجودة في كل منطقة وجوارها القريب، وهذا المستوى أعطى فيما بعد، شيئاً من الخصوصية - والتمايز بين التيارات الرئيسة الثلاث لحنفاء الجزيرة(*) كنتيجةٍ لخصوصية الموجود الديني التوحيدي في كل منطقة، والذي نهل منه حنفاؤها.

المستوى الثاني - عام، شمولي، يتم مع مذاهب الجزيرة التوحيدية المختلفة، بغض النظر عن تمركزها الجغرافي، ظهرت بنتيجته الخطوط العريضة المشتركة لحنفاء شبه الجزيرة العربية ككل، وتكونت وحدة الفكر الحنيفي في القرن السادس للميلاد.

إن شمولية التفاعل الذهني الحنيفي مع ديانات الجزيرة التوحيدية، لم تكن لتغدو فاعلةً وممكنة بدون وجود أقنية اتصال خاصة تحتويها، وأهمها:

أولاً ــ الأسواق التجارية الموسمية(**):

انتشرت الأسواق التجارية الموسمية(***) في مختلف أنحاء الجزيرة، وتوزعت أوقاتها على مدار السنة القمريّة بشكل متكامل، بحيث لاتتقاطع مواسم الأسواق الرئيسة ولاتتضارب أوقاتها، وتوفرت نتيجةً لذلك فسحةٌ مكانية، تنتقل على مدار السنة، من مكان إلى آخر في شبه الجزيرة، محتوية تجمعات بشريةٍ كثيفة من الوفود القادمة مع القوافل التجارية... فسحةٌ يتم

(*) وهي مجموعة اليمامة، مجموعة اليمن والجنوب، ومجموعة المدينة - مكة - الطائف.

(**) انظر اللاحق: جدول رقم (١) خريطة رقم (٣)

(***) كان لكل مدينة بطبيعة الحال أسواقها المحلية الدائمة، لكن الحديث يدور هنا عن الأسواق الموسمية التي يعقد كل منها في فترة زمنية محددة من السنة، تصل بشكل وسطي إلى خمسة عشر يوماً، وهذه الأسواق بحسب اليعقوبي: «دومة الجندل - المشفر - صحار - عكاظ - المحفة - ذو المجاز - حضرموت - الشمر - عدن - صنعاء - دبي - حجر اليمامة - نطاة خيبر - بصرى - دير أيوب - أذرعات - الأسقى....».

فيها كل أشكال التبادل التجاري والثقافي النشط بين أبناء شبه الجزيرة، على تنوع مواطنهم وانتماءاتهم القبلية والمذهبية.

وفيما كانت الأسواق الواقعة على السواحل البحرية، وقرب الموانئ التجارية، مثل سوق عدن وسوق عمان، مكاناً للاتصال المباشر بالأجانب من هنود وأحباش وروم وفرس، كانت الأسواق الداخلية مكاناً للتبادل التجاري والروحي بين قلب الجزيرة وأطرافها، وهي بالإضافة إلى طابعها التجاري أساساً، كانت أسواقاً أدبية، فيها تتم المناظرات الشعرية، وتلقى الخطب، وتعقد الأحلاف، وتتم مختلف أنواع العقود والمعاهدات القبلية، وإليها يقصد المبشرون الدينيون على اختلاف مذاهبهم لنشر دعاوتهم في جوٍ من الأمان الذي تكفله حُرْمَةُ تلك الأسواق.

إن أهم الأسواق، كان يجري عقدها في الأشهر الحرم، مثل سوق عكاظ وذو المجاز وسوق حباشة وصحار وحضرموت... حيث لاثأر أو خصومات وحروب قبليّة، وهذا ماجعلها مكاناً مثالياً لعقد كافة أشكال الحوار الذهني، العقيدي والأدبي.

والأهمية التي تميزت بها هذه الأسواق، كمنبر للدعوةِ الدينية، نستطيع أن نلمسها بوضوح في موقف الرسول صلى الله عليه وسلم منها، حيث قصدها سبع مرّات للتبشير بالرسالة الجديدة، كما قصدها المبشرون والكهان بمواعظهم المسجوعة، وفيها لمع الحنفاء الخطباء كقس بن ساعدة الإيادي، والحنفاء الشعراء كأمية بن أبي الصلت والحنفاء القضاة مثل عامر بن الظرب العدواني.

إن القوافل التي كانت تقصد الأسواق الموسمية، كانت تحمل بالإضافة إلى بضائعها التجارية، تنوعاً مذهلاً من الأدب والأفكار والعقائد، آتيةً من مختلف أنحاء الجزيرة، لتلتقي جميعاً في مكان وزمان واحد، تتبادل فيه خلال فترة السوق حمولاتها الماديّة والروحيّة، ثم تعود إلى أماكن انطلاقها،

حيث تكون قد انطلقت، ربما قبل وصولها؛ قوافل أخرى قاصدةً سوقاً آخر حان موسمها، في مكان آخر من شبه الجزيرة، وهكذا، بالتتالي، وعلى مدار السنة، كانت الأسواق الموسمية، تؤمن مناخاً شديد الأهمية، لحوار فاعل لاينقطع بين مختلف مذاهب وتيارات شبه الجزيرة الدينية، ومصدراً لاينضب لمن يريد اكتساب المعرفة والأدب واغتراف العلوم الدينية، مثلما هو حال الحنفاء في ذلك العصر.

ثانياً ـ الأديرة.

لعبت الأديرة دوراً هاماً، بحكم أنها كانت محطاتٍ على الطرق التجارية، تقصدها القوافل، للراحة والتزود بالماء، وقد انتشرت الأديرة حتى في المواقع القصية من البوادي حيث نجد لها ذكراً في الحجاز ونجد وجنوب الجزيرة وشرقها، فيما كان لها وجود أكثف في جنوب العراق، وجنوب الشام، وقد وردتنا إشارات عديدة، في الشعر الجاهلي، إلى الأديرة ورهبانها الذي يقيمون بجوار مياه عذبة عادةً، تكون هدفاً ملحاً للمسافرين في الصحراء، وقد كانوا يؤدون دور المنارات التي تهدي القوافل ليلاً بمصابيحهم المضاءة يحملونها لإرشاد المسافرين.

إن الأديرة في شبه الجزيرة، وعلى تخومها القريبة، لم تكن في ذلك الوقت مجرد صوامع يسكنها نساك متوحدون، منقطعون عن العالم الخارجي وعن نشاطاته، للعبادة والتنسك فحسب، كما هو حال أديرة اليوم، بل كانت بحكم كونها محطات للقوافل، مراكز هامة، نقلت التوحيد النصراني على اختلاف مذاهبه إلى سكان شبه الجزيرة، ولعبت دوراً هاماً في إغناء الفكر التوحيدي داخلها آنذاك، لقد كانت أديرة ذلك العصر، بمثابة دور للعلوم الدينية، يقصدها طلابه خلال تجوالهم بين الجزيرة والعراق والشام، ومن هؤلاء أسماء لامعة بين الحنفاء مثل زيد بن عمرو بن نفيل وأمية بن أبي الصلت وعثمان بن الحويرث وغيرهم ممن قصدوا الشام والعراق تكراراً للتزود

بالمعارف الدينية التوحيدية. وإنه من الهام جداً، أن نشير إلى أن هذه الأديرة، كانت بأغلبيتها الساحقة على النصرانية التوحيدية المضادة للتثليث الذي يقول بألوهة يسوع، ففي العراق كانت الكنائس والأديرة بطبيعة الحال على المذهب النسطوري، وكذلك الأمر في شرق الجزيرة، أما في الشام الجنوبي، وعلى تخوم الحدود الشمالية الغربية للجزيرة، فقد كانت الأديرة بمقدار ابتعادها عن أنطاكية واقترابها من الجزيرة، تؤكد انفصالها العقيدي عن الكنيسة الأرثوذوكسية الرسمية، وابتداء من قضاء بصرى يطالعنا رهبان على المذاهب المضادة للتثليث، مثل الراهب بحيرا الشهير، الذي كان على النسطوريّة باعتراف المؤرخين الكنسيين الرسميين.

إن المذاهب النصرانية المضادة للتثليث كالنسطورية والآريوسيّة والشيع اليهودية النصرانية، والتي عدّتها الكنيسة الرسمية هرطقات خطيرة ينبغي إبادتها، إن هذه المذاهب، لم تختف من الوجود بمجرد صدور قرارات الإدانة ضدها، فباعتراف الآباء الكنسيين الرسميين، وبحسب تعبيرهم، استفحلت هذه الهرطقات في المقاطعات العربية من الأمبراطورية البيزنطية، واستعصى أمرها على الكنيسة الرسمية رغم الاضطهاد الطويل الذي مورس ضدها، لقد انتشرت هذه المذاهب بقوة في المنطقة العربية، وكان لها كنائسها وأديرتها، التي لم تكن بطبيعة الحال كاتدرائيات فخمة، إنما كانت تمارس نشاطها من خلال أديرةٍ فقيرة، وكنائس متنقلة يسكن أساقفتها بيوتاً من الشعر، أطلق عليهم المؤرخون اسم أساقفة الخيام!. وفي حين كان مبدأ التقية هو السائد بين المسيحيين النساطرة والآريوسيين، في المناطق الخاضعة مباشرة للنفوذ البيزنطي، كان حضور الكنيسة النسطورية علنياً في بلاد فارس وحضرموت، وكذلك الأمر بالنسبة للكنيسة الآريوسية في اليمن. إن النزعات النصرانية التي وسمتها كنيسة بيزنطة بالهرطقة، كانت باستمرارها، وإعلانها الاستقلال عن الكنيسة الرسمية، إنما تعلن باستمرار خصوصية المنطقة العربية على المستوى الروحي، وبهذا فقد استطاعت أن تؤثر بفاعليةٍ تفوق بكثير،

فاعلية الكنيسة التثليثية، من خلال دعاوتها بين عرب الجزيرة، من حيث أنها تقدم الشكل المحلي للثقافة الدينية التوحيدية المسيحية. والتي كانت تبث دعاوتها عبر قناة هامة وفريدة في ذلك الوقت وهي المحطات ـ الأديرة المنتشرة على طرق القوافل في الجزيرة العربية وعلى تخومها.

الفصل الحادي عشر

حوار عقيدي بين الحنفاء والمذاهب التوحيدية في شبه الجزيرة

بعد رسم الملامح الرئيسة التي ميزت حنفاء القرن السادس الميلادي، على المستويين الأخلاقي والمعرفي، ومطالعةِ الخطوط الأساسية العريضة في فكرهم التوحيدي، من خلال أدبهم الديني، يصبح الحديث عن المصادر الدينية التي استقى منها هؤلاء معارفهم أمراً شديد الأهميّة، فالحنفاء بوصفهم ظاهرةً محدثة، نشأت وتبلورت في النصف الثاني من القرن السادس، إنما استمدوا علومهم من محيطهم التوحيدي الشديد الغنى والتنوع - وهي مسلّمةٌ اتفق عليها أهل الأخبار - ليبدأوا فيما بعد نشاطاً توحيدياً مستقلاً، ميّزهم بشكل واضح عن الديانات النصرانية واليهودية والصابئية، القائمة في المنطقة منذ قرون. وبرغم المحاولات العديدة التي جرت من جانب بعض المستشرقين، لحشر الحنفاء تحت راية النصرانية، فقد كان من الواضح أن هؤلاء لم يكونوا كذلك: كان هذا واضحاً لمحيطهم القبلي، مثلما كان واضحاً للرواةِ وأهل الأخبار فيما بعد، ولعله من البدهي القول بأن النصرانية واليهودية، بكافة مذاهبها وفرقها، كانت قد وصلت في القرن السادس للميلاد، إلى درجةٍ من التأصّل بحيث لايمكن لأحدٍ أن يخطئ رمزاً من رموزها، فكلا الديانتين، كانتا على المستوى الخارجي الطقسي، قد اتخذتا

ملامحهما النهائية بحيث يمكن تمييزها بسهولة، ومن قبل المراقب العادي، عن الحركة الحنيفية بمختلف فروعها، وفعاليتها النشطة في نهاية القرن السادس وبداية السابع الميلادي.

إننا نشير إلى أن البحث عن المصادر المحتملة للفكر الحنيفي، لايرمي إلى إلحاق أصحابه بهذه أو تلك من ديانات الجزيرة، إنما هو على العكس، يرمي إلى إيجاد المنابع التي أخذ عنها الحنفاء، وهي كما سوف نرى عديدة ومتنوعة، قبل أن يقوموا بصياغةِ عقائدهم الدينية الخاصة بهم، هذه العقائد التي وإن تمايزت فيما بينها، حسب خصوصية حنفاء كل بقعةٍ جغرافية كما أسلفنا إلا أنها كانت تشكل وحدةً متميزة، قياساً بمحيطها الخارجي، لها تفردها على السويتين الإيمانية والطقسية والأخلاقية.

انطلاقاً مما سبق، يصبح البحث عن المصادر الدينية للفكر الحنيفي، منوطاً بعقد حوار عقيدي بين الحنفاء من جهة، وبين الديانات التوحيدية التي كانت قائمة وفاعلة، في شبه الجزيرة العربية وعلى أطرافها في القرن السادس من جهة ثانية، وإن تصنيف هذه الديانة أو تلك كمصدر محتمل لفكر الحنفاء، يتعلّق بشرطين اثنين:

الأول: مدى اقترابها في العمق من التوحيد الحنيفي الذي يعلن عن ذاته، عبر إيمانه بخالق واحد أحد، منزه، ليس له ندٌّ أو مثيل أو ولد.

الثاني: الوجود الفعلي، المباشر، لأصحاب تلك الديانة ـ المصدر، على أرض الجزيرة العربية وفي جوارها القريب آنذاك، وهو شرط لايقل أهميةً عن الأول، باعتباره يجعل من الحوار العقيدي مع الحنفاء، نشاطاً فكرياً واقعياً، يدور في مكان وزمان محددين، خارج إطار الافتراضات والتخمين.

إننا، وعبر هذين الشرطين، سنعقد الحوار الحنيفي مع أهم مذاهب الجزيرة آنذاك وهي: النصرانية، اليهودية، الصابئة.

أولاً ـ الحنفاء والنصرانية:

إن اعتراضاً قد يظهر، عند طرح الفكر الديني النصراني كطرف في الحوار، بحسبانه مصدراً محتملاً من مصادر الحنيفيّة في القرن السادس للميلاد، وهذا الاعتراض يتمحور حول مقولةِ التثليث الأقنومي، وألوهة يسوع، وهي السمة التي ميزت المذاهب المسيحية الرسميّة، فيما لانجد أثراً لمقولة التثليث هذه في الأدب الديني للحنفاء، ولافي ماوردنا عن عقائدهم في الروايات الإخباريّة.

إن أصحاب الاعتراض يرون ـ وهم محقون في ذلك ـ أن هذه القضية، (التثليث الأقنومي) باعتبارها ملمحاً رئيساً في العقيدة النصرانية الرسمية، لابد أن تترك أثراً واضحاً في العقيدة الحنيفية، إذا ماكانت ـ النصرانية ـ فعلاً أحد مصادرها الرئيسة، على المستوى العقيدي، وأنّ عدم وجود مثل هذا الأثر، يقتضي استبعاد المسيحية عند البحث عن تلك المصادر.

من جهةٍ ثانية، نجد أن كتب الأخبار تزخر بالروايات التي أجمع أصحابها على أن حنفاء الجاهلية قد دارسوا النصارى واليهود، وأخذوا عنهم، وأنهم في سبيل ذلك قاموا بالعديد من الرحلات إلى العراق والشام، بحيث أصبح الحوار الحنيفي ـ النصراني والحنيفي ـ اليهودي، نشاطاً وسمةً ملازمين للحنفاء على اختلاف مناطقهم وانتماءاتهم القبلية، عند جميع الرواة دون استثناء.

إن مايبدو هنا على أنه تناقض، سوف ينتفي بالفعل، إذا ماتم شطب المسيحية الرسميّة من لائحة المذاهب المخولة بدخول الحوار العقيدي مع الحنفاء، وبقصر الحوار الحنيفي ـ النصراني على المذاهب النصرانية المحليّة، المعارضة للكنيسة الرسمية، وللتثليث الأقنومي التعددي، فهذه المذاهب التي كانت قائمةً وفاعلة في المنطقة العربية في ذلك الوقت، وحدها المؤهلة لتكون طرفاً في الحوار، بحكم عقيدتها التوحيدية المنزهة في العمق أولاً، وانتشارها الملموس، النشط، في الجزيرة العربية وجوارها القريب، والذي تمثّل في فرقتين رئيسيتين: النصرانية النسطوريّة، والنصرانية الآريوسيّة.

• ــ الحوار الحنيفي ــ النسطوري

حول النقطة الأساسيّة التي أثارت الجدل بين الفرق والمذاهب المسيحية المختلفة، وهي ألوهة يسوع، وموقعه في التثليث الأقنومي، تعلن النسطورية موقفها على الشكل التالي:

> «إنّ اتحاد الله الكلمة، اتحاداً حقيقياً في الجوهر مع الإنسان يسوع في شخص واحد، هو تحديدٌ للألوهة، لذلك هو غير ممكن، فقد ولد الإنسان يسوع من مريم مع كلّ الشهوات والنقائص البشريّة، والله الكلمة، سبق فرأى بأنه (يسوع) سينتصر بحربه مع جميع الشهوات، ويتغلب عليها، فأراد أن يخلص بواسطته الجنس البشري، ولهذا اتحد به بنعمته، منذ لحظة الحبل»[1].

وفق ذلك، يغدو يسوع في العقيدة النسطوريّة، إنساناً، اختارته الحكمة الإلهيّة للتبشير برسالةٍ دينيةٍ سماوية، وقد غمره الله سبحانه وتعالى بنعمته منذ لحظةِ الحبل، وشدد قواه لتحمّل التجارب، حتى يبشّر بدين ينقذ البشريّة من ضلالها. وفي الجوهر فإن (يسوع) إنسانٌ، مخلوقٌ، وإن كانت ولادته من عذراء، إعجازاً إلهياً خارقاً، وبذلك تم نزع صفة «والدةِ الإله» عن مريم، وهو اللقب الذي أطلقته عليها الكنائس الأورثوذوكسية والكاثوليكية، لتصبح عند النساطرة «والدة الإنسان يسوع»، لكونها إنما ولدت نبياً بمعجزة، ولم تلد إلهاً قط.

وفيما يتعلق بموقع يسوع في المثلث الأقنومي، ومقولة الآب والابن والروح القدس، فإن موقف النساطرة شديد الوضوح:

> «إنّ نعمة الله المتحدرة على يسوع قدست، وشددت قواه في مولده أيضاً، حتى لمّا دخل الحياة بدأ النضال

مع شهوات النفس والجسد، فمحا الخطيئة في الجسد،
ولأجل هذه الحياة الصالحة، استحق يسوع التبنّي
لله»[2].

إن الله سبحانه وتعالى، قد شرّف يسوع، وكرّمه لطاعته، وسماه ابناً على التبنّي لا على الولادة والاتحاد، وهذا الشكل من البنوّة، لايحتمل التأويل، أو القول بألوهة الابن، فنحن جميعاً أبناء الله، إنما سبحانه قد خصّ رسله وأنبيائه بنعمةٍ خاصة ومنهم يسوع الذي «أنزل الله الكلمة عليه مواهب الروح القدس بدرجةٍ أعلى بما لايقاس بما أنزله على الأنبياء والرسل الذين سبقوه»[3] وبهذه المواهب استطاع المسيح أن يقيم الموتى ويشفي البرص، ويبعث الحياة في الطين:

﴿إذ قال الله ياعيسى بن مريم، اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد، وكهلاً، وإذ علمتك الكتب والحكمة والتوراة والإنجيل، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بأذني، فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني، وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني، وإذ تخرج الموتى بإذني﴾. (سورة المائدة: ١١٠)

لقد قامت النسطوريّة بتحطيم أهم ركن في التثليث الأقنومي الرسمي، وهو ألوهة يسوع، فهدمت بذلك جوهر التعدد في التثليث، واستحقت غضب الكنيسة الرسمية واضطهادها، فنال نسطوريوس اللعن والحرمان، ومات منفياً في الصحراء، لكن أتباعه أسسوا كنيسةً نسطوريةً قويةً في المنطقة: «وانتقل أتباعه من بعده إلى شرقي سوريا وشادوا لهم كنائس، وأنشأوا مدرسةً لتعليم مذهبهم في الرهّا، وترجموا التوراة وكتب أرسطو وجالينوس إلى اللغة السريانيّة، ولما اضطهدهم الأمبراطور زينون، انتقلوا إلى فارس، وأنشأوا مدرسةً عظيمة الأثر في نصيبين، وتكونت منهم جماعات في سمرقند وبلخ وفي الهند والصين...»[4].

إننا إذ نتتبع الحضور النسطوري في القرن السادس للميلاد، في المنطقة

العربية، نستطيع تلمّس الانتشار الكبير لهذا المذهب على أرض الجزيرة العربية وعلى تخومها، حيث كان له الحظ الأوفر من بين المذاهب المسيحية في الوجود والاستمرارية، في العراق، والعربية الشرقية واليمن. وقد كان المصدر الرئيسيّ الذي انتشرت منه النسطورية في شرق الجزيرة هو الحيرة، التي غدت المعقل الأقوى في الجوار القريب للجزيرة، بفضل تمتعها بحماية دولة بني ساسان، التي شجعت انتشارها في مواجهة الأرثوذوكسية البيزنطية، وضمن إطار التنافس بين الأمبراطوريتين للسيطرة على المنطقة، في ذلك الوقت. ومن الحيرة انتقلت النسطورية إلى العربية الشرقية، فدخلت قطر وجزر البحرين، واليمامة، وصولاً إلى نجران واليمن، حيث تعرض أصحابها فترة للاضطهاد على عهد ذي نواس الحميري، صاحب الأخدود الشهير الذكر، لكن الأمور عادت لتأخذ مجراها بعد مقتله على يد الأحباش، وبدخول الفرس بعد ذلك إلى اليمن، عادت النسطورية للتمتع بالحماية والاستقرار حيث بقي ذكرها قائماً هناك، في المراجع السريانية، حتى القرن الثالث عشر للميلاد.

من جهة أخرى، دخلت النسطورية إلى الجزيرة انطلاقاً من الشام الشرقي، حيث انتقلت مع المبشرين عبر القوافل التجارية النشطة، والحضور النسطوري فاعلٌ وقوى في شرقي الشام وجنوبه، بعكس التعميم السريع الذي أجمع وفقه المؤرخون الكنسيون، بأن الشام الغسانية كانت على المذهب اليعقوبي حصراً، وقد وصلتنا عبر الإخباريين الإسلاميين، روايات عن أديرةٍ، ورهبان نساطرة أعلام، في الشام الجنوبي، لعل أهمهم هنا، هو الراهب بحيرا الشهير الذكر.

• ـ الحوار الحنيفي ـ الآريوسي:

على مسافةٍ أبعد بقليل، تقف الآريوسية كمصدر من المصادر النصرانية المحتملة، للفكر الحنيفي التوحيدي، ففي الاسكندرية أعلن آريوس وأتباعه أن: «الابن قد صدر بإرادة الله، ليس من الجوهر (جوهر الله)، بل من العدم.

وعلى هذه الصورة فالابن خليقةُ الآب، وحيث أنه خليقة الله، فهو ليس مساوياً للآب، وليس وإيّاه جوهراً واحداً... وحيث أن يسوع مخلوق، فهو معرضٌ لشروط المحدوديّة، بحيث أنّ الكمالات الإلهية: كليّ القدرة، كليّ المعرفة... لاتختصُّ به، ومع كل هذا فإن يسوع إذا لم يكن إلهاً حقيقياً، فيمكن أن يسمّى إلهاً بمعنى الكلمة المجازي، بالتبني لله الآب»[5].

وهكذا، فالابن وفق العقيدة الآريوسيّة، مخلوق، وليس من جوهر الله، الذي تبنّاه فأصبح ابناً لله بالمعنى المجازي للكلمة، وكذلك ألوهته، فهي منسوبةٌ إليه مجازاً، على اعتبار أنه ابن لله بالتبنّي وليس بالولادة، وغير صادر عن جوهر الآب. أمّا الأقنوم الثالث، روح القدس، فهو مخلوق كذلك، ويشغل مكاناً أدنى من الابن.

لقد أعلن آريوس بوضوح أن الفهم الكنسي الرسمي للتثليث الأقنومي، إنما يقود إلى تجزئة الذات الإلهيّة، وبالتالي إلى تعددها، وعندئذ يكون هناك: «ثلاثة آلهةٍ، وهذا ضد إيمان الكنيسة في الله الواحد»، وبالتالي، وبغية التأكيد على وحدانية الخالق، فإن الآريوسية، تُعلِنُ الله الآب، خالقاً وحيداً منزهاً، ليس له ند ولامثيل، في حين تبتعد أقانيم الثالوث الأخرى، إلى مرتبةِ مخلوقاته، ويغدو التعدد الأقنومي لجوهر الآب، لاغياً في العمق.

انتشرت الآريوسية بقوة في مصر وبلاد الشام وصولاً إلى اليمن والحجاز، وقد كان حضورها فاعلاً على الأرض الجزيرة العربية ابتداءً من منتصف القرن الرابع للميلاد، باعتراف أعدائها أنفسهم، فقد ذكر لويس شيخو نقلاً عن فيلو ستروجيوس، وهو من مؤرخي القرن الرابع والخامس الميلادي أن «قنسطنطيوس ابن قسطنطين الكبير، المتشيّع للآريوسيّة، أرسل نحو السنة 356م، وفداً إلى الحميريين في اليمن، فدخل هذا إلى بلادهم، ودخل على الملك وقدّم له ألطافاً وهدايا فنال لديه الحظوة وبشّر بالدين المسيحي (الآريوسي) هناك، واسترحض بتشييد الكنائس» وأنه قد تم إثر ذلك

تشييد ثلاث كنائس آريوسية «الأولى في ظفار والثانية في عدن،...». من جهةٍ أخرى، فقد كتب إيلاريوس القديس في رسالةٍ وجهها إلى الملك قسطنطين «أن فرعاً من أشياع آريوس ظهروا في جهات العرب، وهم يدعونهم أقاقين، باسم أقاقيوس زعيمهم، كانوا يذهبون إلى أن السيد المسيح ليس هو ابن الله....» ويعقب لويس شيخو على ماسبق قائلاً: «فكلٌ هذه البدع، وغيرها، التي شاعت خصوصاً بين القبائل اليهوديّة المتنصّرة الساكنة في حدود بلاد الشام والحجاز، شوّهت المعتقدات النصرانية الصحيحة في تلك البلاد»!!

لقد حوربت الآريوسيّة كهرطقةٍ خطيرة، وبدعةٍ يجب إزالتها من الوجود، لكن بعد أن استطاعت أن تفرض حضوراً قوياً في المنطقة، استطاعت بفضله أن تصبح الديانة الرسمية للامبراطورية البيزنطية، لنصف قرن من الزمن، في عهد قنسطنطيوس بن قسطنطين، لتعود بعد ذلك إلى موقع المعارضة بعد انتصار الأرثوذوكسية التي أصبحت الديانة الرسمية لبيزنطة، على أنّ الاضطهاد الأرثوذوكسي، الأمبراطوري، لم يكن ليستطيع تحطيم الوجود الآريوسي القوي في المشرق العربي، حيث بقيت الآريوسية لتعمل تحت مبدأ التّقية، وظل حضورها قوياً بشكل أرّق الآباء الكنسيين الأورثوذوكس فترة طويلة من الزمن. كما أنّ الوجود الآريوسي في اليمن، والذي بدأ منذ القرن الرابع للميلاد، قد تعزّز بدخول هذا المذهب عبر طريق آخر، وهو الحبشة، ليصل إلى شبه الجزيرة العربية عبر بوابتها الجنوبية. وإذا كان الاضطهاد الإمبراطوري، الديني قد استطاع بعد قرنين من الزمن إضعاف الآريوسية ضمن حدود الإمبراطورية، فإنه لم يستطع ذلك في شبه الجزيرة، حيث بقيت العقائد الدينية، بفضل الاستقلال السياسي لعمق الجزيرة، بمنأىً عن الاضطهاد البيزنطي بكل أشكاله.

إن الآريوسية، التي عاشت لفترة زمنية، وإن تلك لاتقارن بعمر النسطورية المديد، إلا أنها استمرت في الوجود، وصولاً إلى القرنين السادس

والسابع للميلاد، وهذا يؤهلها لتكون مصدراً آخر، رفد لفكر التوحيدي الحنيفي، في عمق الجزيرة العربية.

ثانياً ـ الحنفاء والصابئة(*)

في إطار الحديث عن المصادر الفكرية التي نهل منها الحنفاء، على المستويين العقيدي، والطقسي، يبدو الحضور الصابئي شديد الوضوح، ونحن في الحقيقة، وقبل أن نعقد الحوار الحنيفي ـ الصابئي، نستطيع أن نلمح سلفاً هذا الحضور القوي عبر نقطتين:

الأولى ـ التطابق اللغوي بين كلمة (صبأ) السريانية، و(حَنَفَ) العربية، حيث يشير معنى كلٍ منهما من خرج عن دين آبائه إلى الديانة الصحيحة، وقد استعمل العرب الكلمتين للإشارة إلى المعنى ذاته قبيل الدعوة الإسلامية.

والثانية ـ التشابه الواضح بين الحضور الحنيفي والصابئي إلى درجة أن بعض الباحثين الإسلاميين قد جعلوا من الحنفاء والصابئة اسمين، لمذهب واحد: «والصابئون على الأرجح أنهم تلك الطائفة من مشركيّ العرب قبل البعثة الذين ساورهم الشك فيما كان عليه قومهم من عبادة الأصنام، فبحثوا لأنفسهم عن عقيدة يرتضونها، فاهتدوا إلى التوحيد، وقالوا، إنهم يتعبدون على الحنيفة الأولى ملّة ابراهيم، واعتزلوا عبادةَ قومهم دون أن تكون لهم دعوة فيهم، فقال عنهم المشركون إنهم «صبأوا»، كما كانوا يقولون عن المسلمين بعد ذلك...»[6].

ونحن بالطبع لانتفق وهذا الرأي، لكننا نرى أن الصابئة المندائيين، قد لعبوا دوراً شديد الأهمية كمصدر للفكر الحنيفي، ونستطيع أن نميّز، ذلك

(*) نعني هنا الصابئة المندائيين أو صابئة البطائح، وليس الصابئة الحرانيين، والأولون من أصحاب الكتاب، وهم الذين تحدث عنهم القرآن الكريم باعتبارهم كذلك.

بوضوح من خلال اثنين من أعلام الحنفاء، أولهما هو أمية بن أبي الصلت الذي سافر إلى البحرين، واستقر هناك مدّة طويلة وصلت إلى ثماني سنوات، يستكمل علومه الدينية، ويتهيأ للبدء في دعوته الخاصة، والثاني هو قس بن ساعدة الذي وردت إشارات كثيرة إلى كونه على الرّكوسيّة(*)، وهي فرقة بين الصابئين والنصارى، مما يعني بشكل أو بآخر احتمال امتداد التأثير الصابئي إلى حنفاء عمق الجزيرة، وصولاً إلى اليمن موطن قس بن ساعدة، وعدم كونه محصوراً في شمال شرق الجزيرة العربية.

إن الحضور الصابئي القوى في الجانب الطقسي للحنيفية، إنما يميز الأثر الصابئي عن الدور الذي لعبته الفرق النصرانية في شبه الجزيرة، في هذا المجال، ففي حين لانلمح حضوراً طقسياً للنصرانية لدى الحنفاء، نستطيع أن نرى تقاطعاً واضحاً في الجانب الطقسي بين الحنفاء والصابئة، نستطيع إيجازه فيما يلي:

1 ـ الوضوء والاغتسال من الجنابة، حيث عرف عن الصابئة كثرة الوضوء والتعمد في الماء الجاري إلى درجة أن العرب أطلقوا عليهم اسم المغتسلة.

2 ـ أداء الصلوات، ثلاث مرات يومياً.

3 ـ الحضور القوي لابراهيم الخليل في طقسي الصلاة والوضوء (انظر الملحق (1)).

4 ـ وجود آذان خاص بالصابئة «بأسمائك.. الحي.. العظيم..، الأذان، الأذان، وجب أداء الرحمة وتلاوة السور»[7].

إن ماوردنا عن حنفاء اليمامة، وبشكل خاص عن مسيلمة بن حبيب(**) الذي اتخذ له مؤذناً، وكان يؤدي صلوات ثلاثاً في اليوم، والذي

(*) من بين الحنفاء الأعلام الذين ورد تصنيفهم عند بعض الباحثين باعتبارهم على الركوسيه حاتم الطائي.

(**) انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ـ د. جواد علي ـ المجلد السادس

كان بحكم كونه واحداً من أبرز الحنفاء، يمارس الطقوس الأخرى التي اتفق واجتمع عليها هؤلاء، (انظر حنفاء الجاهلية: العقيدة والطقس)، إن ماوردنا بهذا الخصوص يضعنا أمام الانعكاس الجلي للطقس الصابئي على حنفاء الجاهلية، وبخاصة في القسم الشرقي والشمالي الشرقي منها، بحيث يبدو الصابئة في مقدمة التيارات المغذية للحنيفية على المستوى الطقسي.

أمّا على المستوى الإيماني، وبالإضافة إلى التقاطعات العريضة بين هؤلاء وأولئك، فيما يتعلق بوحدانية الله تعالى، والموقع المتفرد لإبراهيم الكبير، فإننا نستطيع أن نلمس تقاطعاً شديد الخصوصية بين الصابئة من جهة وبين أحد أهم التيارات الحنيفية المتمثل بأمية بن أبي الصلت، الذي كان على اتصال مباشر بصابئة شرق الجزيرة خلال رحلته الطويلة إلى البحرين، وتأثر أمية بعقيدة هؤلاء نستطيع رؤيته في شعره المتعلق بالكواكب (انظر: فكر الحنفاء الديني كما ورد في الشعر والنثر الجاهليين).

«إن اعتقاد الصابئين بالله، يشبه إلى حدٍّ بعيد اعتقاد الفئات الغنوصيّة (العرفانية) حيث أنهم يدركونه عن طريق الفيض الإلهي، ومن مظاهر الخليقةِ التي أبدعها، وهم لايعبرون عنه إلا بصفة الجمع، أما من حيث اعتقادهم باليوم الآخر فالعالم الدنيوي ليس سوى منفى مؤقت للروح، التي ستنطلق بعد الموت، إلى حسابٍ عسيرٍ، يعدُّ لها، فإما أن تذهب إلى الجنة، أو إلى المطهر حيث تتعذب بدرجات متفاوتة إلى أن تتطهر من ذنوبها»[8].

والقبلة التي يعتمدها الصابئة هي الشمال، الذي يحدده نجم القطب، وهم يتوجهون شمالاً في طقوسهم وصلواتهم، كقبلة ثابتة، وللكواكب موقع هام في عقيدتهم، وهم بعكس ماتهموا به مراراً، ليسوا عبدةً للكواكب، غير أنهم يعتقدون أن الأجرام السماوية «تحتوي على مخلوقات حيّة، هي أرواحٌ خيرة، يصاحبها أرواح شريرة هي أضدادها»[9].

إننا إذ نشير إلى تفرّد أمية بين حنفاء عصره، بالحديث عن الكواكب، وإيلائها عناية في شعره الديني، إنما نريد أن نقول إن الحضور العقيدي

الصابئي، واضح الأثر، لدى قسم من الحنفاء الذين يمثلهم أميّة، وخصوصية هذا الموضوع الديني الذي يعطي موقعاً خاصاً لنجم القطب، قبلة الصابئة، والذي تحدث عنه أمية في شعره بوصفه: المعمّم، أو السيّد... الذي تحف به الأنوار... وتحيط به الملائكة؛ هذه الخصوصية لاتترك مجالاً للشك في مدارسةِ أميّة للصابئة، وأخذه عنهم ما أخذ، من طقوس وعقائد، وتقودنا إلى الدور الهام الذي لعبه هؤلاء في الفكر الحنيفي الجاهلي على وجه العموم.

ونعود هنا، للحديث عن كوننا لانستبعد امتداد التأثير الصابئي من شرق الجزيرة إلى غربها، وصولاً إلى نجران في اليمن، هذا الحضور المتمثل بشخصية قس بن ساعدة الإيادي، الذي صنفه قسمٌ من المؤرخين تحت راية «الركوسية». وبهذا الخصوص نود أن نلفت النظر إلى أن كثيراً من الحنفاء، قد تم حشرهم حشراً، تحت راية النصرانية، أو اليهودية، أو غيرها من الملل، من قبل الرواة الأسلاف، وكذلك من قبل الباحثين المعاصرين، دون الاستناد إلى مايسوّغ هذا التصنيف، ونحن إذا نرى التأثير المباشر والعميق للتيارات التوحيدية في شبه جزيرة العرب، على حنفائها، نميل بشدة إلى اعتبار هؤلاء، متأثرين بها، مدارسين لها، وليسوا أعضاء في فرقها، فكما أن أمية لم يكن صابئياً قط، كذلك قس فهو ليس إلا واحداً من أعظم حنفاء الجزيرة، وأهم أعلامهم المعروفين.

ثالثاً ــ الحنفاء واليهوديّة:

مع ظهور يهوه، إله الرعاة المتوحش إلى الوجود، على يد الأحبار مدوني التوراة والتلمود، بكل سماته المتعصبة والدمويّة، يبدو للعيان وكأنما جدار هائل، يفصل الحس اليهوي الهمجي عن السويّة الخلقية الرفيعة التي اتصف بها حنفاء الجاهلية، جدارٌ يمنع كل احتمال لوجود اتصال ذهني، ويجعل اليهوديّة مستبعدة تماماً، من بين المصادر المحتملة للفكر الحنيفي قبل الإسلام.

فيهوه الإله الإتني المتعطش للدماء، الذي لايرحم خاطئاً، ولايغفر زلّة ويأخذ الأبناء بجرم الآباء، أبعد من أن يكون على صلةٍ، بإله الأحناف المتسامي الرقيق، خالق الإنسانية جمعاء، وراعيها، إنّ خطأً عميقاً فاصلاً، يظهر بين النسق الأخلاقي اليهودي اليهوي، الذي يقدم لنا نماذج منحطة من السلوك البشري المبارك من قبل الإله، بدءاً من إقامة المذابح الجماعية(*)، وانتهاءً بالسرقة(**)، وبين السلوك الرفيع لحنفاء الجاهليّة، الذي تحفل به جميع المراجع التاريخية من إحياء المؤودة، ومساعدة المظلوم، والترفع عن الرذائل... وغير ذلك مما يشكل البنية الأخلاقية السلوكية للفكر الحنيفي آنذاك.

إنّ نظرة سريعة إلى إله هؤلاء وإله أولئك، توحي بالفصل بين الإلهين، بنفس الطريقة التي يفصل فيها الثنويون بين إله الخير وإله الشر!، لكن هنا، ومرةً أخرى تطالعنا روايات المؤرخين التي تؤكد أن الحنفاء قد دارسوا اليهود والنصارى وأن هؤلاء قد أخذوا عن الرهبان والأحبار على حدٍ سواء، ونقع في التباس جديد...

إنّ الجانب البالغ الأهمية في هذه النقطة بالذات، هو أنّ أرض شبه الجزيرة العربية كانت في القرون الستة الأولى للميلاد، الحضن الدافئ للهرطقات اليهوديّة والمسيحية على حد سواء، وهذه الهرطقات، إنما هي بتمايزها عن المذاهب الرسميّة عقدةً وسلوكاً، تعلن عن نفسها باعتبارها، مصادر خصبةً محتملةً، ساهمت في تشكل ونمو الذهب التوحيدي للحنفاء،

(*) من هذه النماذج على سبيل المثال، لاالحصر: «والآن اذهب واضرب عماليق، وحرموا كل ماله، ولاتعفُ عنهم، بل اقتل رجلاً وامرأةً، طفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، جملاً وحماراً...» (صموئيل الأول)، «اقتلوا كل ذكر من الأطفال، كل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعةِ ذكرٍ اقتلوها، لكن جميع الأطفال من النساء لم يعرفن مضاجعة ذكر أبقوهن لكم حيات» (قضاة)

(**) «فيكون حينما تمضون، أنكم لاتمضون فارغين، بل تطلب كل امرأةٍ من جارتها، ومن نزيلةِ بيتها، أمتعة فضة، وأمتعة ذهب، وثياباً تضعونها على بنيكم وبناتكم، فتسلبون المصريين!» (خروج).

ونحن حين نتحدث عن حوار عقيدي بين اليهوديّة والحنفاء، إنما نقصد بالتحديد هذه المذاهب الخارجة عن الإطار التلمودي(*)، والخارجة عن النسق الأخلاقي المنفّر لليهودية الرسميّة، ومثل الفرقة الأسينيّة، خير نموذج يمثل هذه المذاهب (انظر الملحق (1)).

من ناحية أخرى، فإن جميع المذاهب اليهودية - النصرانية، بقيت محافظةً على الشعائر اليهوديّة اليوميّة الدقيقة، جنباً إلى جنب مع احتوائها في العمق المبدأ الخلاصي الذي ميز المسيحية على مستوى العقيدة، وهذه الشعائر التي تبدأ من أبسط طقوس التطهر وانتهاء بالقواعد الصارمة المتعلقة باحترام يوم السبت، إنما كانت تعلن عن أصحابها، بالنسبة للمراقب الخارجي، باعتبارها يهوديّة، وهذا ماتسبب في إدراج أصحابها تلقائياً في خانةِ الدين اليهودي من قبل العديد من المؤرخين، خاصةً وأن هذه المذاهب لم تتمكن

(*) التلمود: بحسب الأخبار هو التعاليم الشفهية التي لقنها الله إلى موسى، تم البدء بجمعه وتدوينه بعد خراب الهيكل (70م) وهو قسمان:
1 - منشاه: وتضم اللوائح القانونية التي وضعها اليهود لتنظيم شؤون حياتهم المختلفة، في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والبدنية، كما تضم لوائح العقوبات الخاصة بالجرائم المختلفة.
2 - جماراه: وتضم شروح التعاليم السابقة.
وقد حرص أصحاب التلمود على إبقائه قيد الكتمان ، محجوباً عن «الغوييم» والمسيحيين منهم بشكل خاص، لما يتضمنّه من شتائم وأوصاف غير لائقة بالسيد المسيح مثل: «ابن زنا، مجذوم، غشاش بني اسرائيل... الخ»، ولما يحتويه من تعاليم تفيض بالعدوانية والاحتقار تجاه المحيط الخارجي، فوفق التلمود، إذا قتل يهودي، شخصاً غير يهودي، فإن ذلك كقتل البهيمة، شيء لايعاقب عليه القانون، أما إذا قتل اليهوديّ يهودياً فإن روح القاتل «تدخل في الحيوانات والنباتات، ثم تذهب إلى المطهر تتعذب عذاباً أليماً مدة اثني عشر شهراً، ثم تعود لتدخل في الجمادات ثم في الحيوانات ثم في الوثنيين، حتى ترجع إلى جسد يهوديّ بعد تطهرها» (الكنز الموصود في قواعد التلمود) وهناك كتابان للتملود، التلمود الفلسطيني، وقد انتهى جمعه عام 200 م، والتلمود البابلي الذي انتهى تدوينه في 490م.

من الاستمرار طويلاً في أرض فلسطين، حيث الاضطهاد اليهودي والإمبراطوري المزدوج.

إن مذاهب يهودية ـ نصرانية، مثل الكسائيّة، والأبيونية، كانت مضطرةً، بشكل مبكر، للنزوح باتجاه أرض محايدة، تضمن لها الاستقرار والأمان، وهذه الأرض لم تكن سوى عمق الجزيرة العربية ونحن إذ لانستطيع أن نتتبع بدقة الحضور المباشر لأصحابها في القرون التي سبقت الإسلام، نستطيع القول بأن الأخبار التي تحدثت عن اليهودية وعن النصرانية في شبه الجزيرة، كانت تشمل ضمناً هذه المذاهب، إنْ كان في مايتعلق بوجودها المشخص بين قبائل الجزيرة، أو في مايتعلق بكونها طرفاً رئيساً قام الحنفاء بمحاورته ومدارسته.

إنّ الأهميّة التي تكتسبها اليهودية ـ النصرانية، تتجلّى في أنها في العمق كونها، خارجةٌ سلفاً، عن أطر التثليث التعدّدي البولسي، والسيد المسيح يبدو هنا بوصفه المخلص الموعود، الذي جاء كي يطهّر الناموس، ويعيد الديانة الحقيقة، فقد أرسل الله روحه الذي حلّ في المسيح حتى يتم رسالته، وبشكل أساسي، فليس في اليهودية ـ النصرانية شيء يتعلق بألوهة يسوع، فهو الإنسان المخلص الذي نال من الله سبحانه قوةً إلهية في اللحظة التي نال فيها المعموديّة على يد يوحنا المعمدان في الأردن.

من جهة ثانية، وبالإضافة إلى التوحيد المنزه في العمق، بقيت الطقوس القديمة ملازمةً لليهود النصارى، كالختان، والتطهر بالماء، والامتناع عن تناول المحرمات... الخ، وهي طقوس نلمحها إلى هذا الحد أو ذاك في الطقس الحنيفي في القرن السادس. وإذا كانت التيارات المسيحية الآريوسية والنسطورية، التي حققت انتشاراً حقيقياً، واستمراريةً كافية في أرض الجزيرة، قد رفدت الفكر الحنيفي في عمقه التوحيدي، فإن اليهودية ـ النصرانية، كانت برأينا مؤهلةً لتلعب هذا الدور على كلا المستويين، العقيدي والطقسي، في العمق وعلى السطح.

هوامش الفصل الحادي عشر

(1) - (5) انظر الملاحق

(6) في ظلال القرآن - سيد قطب - ص (95)

(7) الصابئة المندائيون - ليدي دراوور - ص (353)

(8) المرجع السابق - ص (19)

(9) المرجع السابق - ص (27).

الفصل الثاني عشر

خاتمة

إن قراءةً متأنيةً في العقائد الدينية، في شبه الجزيرة قبيل الإسلام، سوف تعيد إلى أذهاننا شكلاً مألوفاً من العبادة، عرفته المنطقة العربية القديمة قبل ألوف السنين، وهو الشكل الذي تكلمنا عنه في الباب الأول من هذا الكتاب، تحت اسم «التوحيد الربوبي»، بحسبانه، ذاك النمط الديني الذي يعلن عن وجود خالق وحيد للكون على المستوى الإيماني، والذي يقيم شعائره وطقوسه متوجهاً إلى الأرباب «الضوابط الكونية المخلوقة»، مما يخلق مناخاً فصامياً بين العمق والطقس أدى وبالتدريج إلى تفسّخ هذا النمط من التوحيد وظهور الوثنية.

إن عبادة الأرباب في الجاهلية كانت تخضع بشكل أو بآخر لهذه السيرورة، مع وجود خصوصية ميزتها في شرطها التاريخي، وهي وجودها في القرن السادس الميلادي في منطقة جغرافية اتسمت بوجود فسحةٍ من التسامح الديني، الذي سمح بتعايش أنماط ومذاهب شديدة التنوع من العقائد التوحيدية، مع العبادات الربوبية المعروفة، بحيث تحولت اللوحة الدينية إلى فسيفساء شديدة الغنى للفكر الديني العربي، على الأرضية الجغرافية الفسيحة لشبه الجزيرة آنذاك.

إن الغوص في أعماق الديانات الربوبيّة الجاهلية، برغم طابعها الوثني

الواضح قبيل الإسلام، لابد أنه سينبئنا بملامحها القديمة، التوحيدية في العمق. والحضور الكثيف للأرباب، رغم طابعه المكرس وثنياً من قبل الكهنوت، لايحجب نهائياً، رغم قوته، عقيدة التوحيد الرّبوبي، التي كانت قائمة في وقت ما والتي كانت تعلن وجود خالق واحد وحيد للبشر والأرباب(*) على حد سواء.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه النقطة الهامة في أكثر من سورة وآيةٍ:

«ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض، وسخر الشمس والقمر ليقولنّ: الله فأنى يؤفكون»(**).

«ولئن سألتهم من خلقهم، ليقولنّ الله فأنّى يؤفكون»(***).

إنّ تتبع سيرورة تطور التوحيد الربوبي الجاهلي، وصولاً إلى تفسخه وظهور الوثنية، سوف يظهر دور الكهنوت القوي، الذي كان كأسلافه في المنطقة العربية قبل الميلاد، مسؤولاً بشكل مباشر عن انهيار هذا النمط التوحيدي وذلك بتسطيحه للعقيدة الأسراريّة، واختصارها إلى طقوس ربوبيّة، في إطار سعيه المحموم وراء الثروة التي تؤمنها هذه الطقوس، بتقديم النذور والقرابين والهبات إلى المعبد(****)، كل ذلك في محيط ذهني شعبي،

(*) كانت الشمس والقمر من الأرباب التي عبدها عرب الجاهلية كغيرهم من الشعوب، وهي بحسب القرآن الكريم، في رأي الجاهليين، مخلوقة ومسخرة من قبل الله، كما تشير الآية المذكورة أعلاه، وهو مايؤكد وجود عقيدةٍ توحيدية ربوبية، تقول بخلق الأرباب وحدانية الخالق في الجاهلية.

(**) سورة العنكبوت، الآية (61).

(***) الزخرف، الآية (87).

(****) إن الحديث هنا يجري عن تراكم حقيقي للثروة، حوّل الكهنوت في بعض مناطق الجزيرة إلى أرستقراطية وراثيةٍ حقيقية، فقد كان القتبانيون على سبيل المثال يدفعون عشر محاصيلهم سنوياً إلى المعبد، وقد عرفت هذه الضريبة عندهم تحت اسم (عصم)، وعند المعنيين عرفت نفس الضريبة تحت اسم (عشر)، وهي تدفع أيضاً عن الماشية، هذا بالإضافة إلى الهبات والنذور التي كانت في الغالب من ←

كان ولايزال لايعرف عن ديانته إلّا جانبها الطقسي، بحيث انتهى الأمر إلى ظهور نمط وثني شديد الوضوح وسم الديانات الجاهلية الربوبية، قبل مجيء الإسلام بفترة ليست بالقصيرة.

لكن الديانات الربوبية لم تكن تشغل إلّا حيزاً جزئياً في اللوحة، فهناك حضور قوي ومتميز لديانات توحيدية غير ربوبية، أعلنت التوحيد في العمق والطقس، حيث الإيمان في العمق بوحدانية الخالق، وتكريس النشاط الطقسي له وحده، لقد عرفت الجزيرة الجنوبية عبادة (ذي سموى)، إله السماء، التوحيدية، وهناك عبادة الرحمن التي كانت منتشرة في الجنوب، وفي أعالي الحجاز، وذلك قبل أن يدعو إليها مسيلمة، بأكثر من مئتي عام، هذا إلى جانب الفرق العديدة، النصرانية واليهودية والصابئية واليهودية - النصرانية، والتي كانت تستكمل بقية ألوان اللوحة، فيما أشار المؤرخون مراراً إلى وجود مباشر وقوى لعبادة «إيل» التوحيديّة في شبه الجزيرة، وذلك تحت عنوان «الديانة الإبراهيمية»، التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، باعتبارها ديانةً توحيدية، تنزّه الله سبحانه، وتقر عبادته وحده.

في إطار هذه الفسيفساء، ولدت ظاهرة الحنفاء، ونحن إذ نراها ظاهرة وليدةً، منشأةً، نميّزها عن محيطها التوحيدي الذي كان قائماً منذ قرون، رغم تقاطعها معه في العمق الإيماني، وتفاعلهما النشط على المستوى الذهني، حيث كان هذا المحيط، الرّافدَ العريض الذي اغترف الحنفاء منه معارفهم الدينية.

ما الذي يميّز الحنفاء عن هذا المحيط، وما الذي يعنيه ظهور تيار جديد آخر من التيارات التوحيدية التي تقول بوجوب عبادة الله وحده إذا كانت هنالك عبادات عديدة قائمة ومعروفة منذ قرون في نفسها البقعة الجغرافية،

← الحلي والمصوغات الذهبية والفضيّة التي كانت تلقى في خزائن خاصة توضع عند قدمي الصنم، ليأخذها السدنة فيما بعد (المفصّل - د.جواد علي - ص (188)).

تحمل المضمون الديني ذاته، مثل عبادة ذي سموى وعبادة إيل وعبادة الرحمن، هل هذا يعني مجرّد ظهور ديانة توحيدية أخرى تصطف لتأخذ حيّزها المحلي ضمن البانوراما العقيدية للجزيرة؟

إنّ الفارق النوعي الهام بين ماذكرنا من التيارات التوحيدية وبين ظاهرة الحنفاء، إنما يكمن في أن الأخيرة قد ولدت وهي تحمل مشروعاً سياسياً ـ دينياً على مستوى الجزيرة ككل، مشروع يهدف لاستبدال التوحيد بالتعدد على المستوى الذهني، والوحدة بالتشرذم القبلي على المستوى السياسي، ومثل هذا المشروع، يمر حكماً، عبر إلغاء جميع الأشكال العباديّة المحليّة، التي تعكس، وتكرّس، التفتت الاجتماعي، في صورة الحضور المتعدد للأرباب التي تتنوع تنوع الجغرافيا والانتماء القبلي.

لقد اصطدمت دعوة الحنفاء كما رأينا بالمقاومة العنيدة من طرف أصحاب الديانات الربوبيّة، فالثانية كانت ترى في الأولى، حضوراً خطيراً لتيار ديني ـ سياسي، يعمل على إلغاء وجودها الروحيّ والمادي، في حين استطاعت الديانات الربوبية ذاتها التعايش لقرون عديدة مع ديانات الجزيرة التوحيدية الأخرى...

إن الصراع بين الحنفاء والأرباب سيبدو وفق ذلك، بوصفه أولاً صراع اجتماعي سياسي بين الوحدة والتفتت، بين الشمولي وبين المحلي، بين القديم وبين الجديد، وهو يعلن بمنتهى الوضوح عن المشروع السياسي ـ الديني الذي بدأه هؤلاء، والذي كتب عليه أن يتوقف، بولادة الدين الجديد ونزول القرآن، فالإسلام الذي قدّم التوحيد المنزه بأرقى أشكاله، قام بانتصاره، بتحقيق المشروع التوحيدي الحنيفي بشقيه الإيماني والسياسي، وانتفى بذلك الشرط التاريخي الذي ولدت عبره تلك الظاهرة الفريدة، ظاهرة الحنفاء.

الباب الرابع

الملاحق

الملحق الأول:

الديانات التوحيدية في شبه الجزيرة العربـية وعلى تخومها قبل الإسلام

عرفت المنطقة العربية في القرن السادس للميلاد، تنوعاً كبيراً في الديانات والمذاهب التوحيدية، يمكننا تقسيمها إلى أربع مجموعات كبرى:

1 ــ **النصرانية**: وتشمل المذاهب: الأورثوذكسي ـ اليعقوبي ـ النسطوري ـ الآريوسي.

2 ــ **اليهودية النصرانية**: وتشمل مذاهب: الأبيونيّين ـ الكسائيين ـ الناصريين.

3 ــ **اليهودية**: وتشمل: الفريسيين ـ الصدوقيين ـ السامريين ـ الأسينيّين.

4 ــ **الصابئة**: وتنقسم إلى فرعين كبيرين: الصابئة المندائيون ـ الصابئة الحرانيون.

وسوف نتقدم، في هذا الملحق، بتعريفٍ موجزٍ وسريع، لهذه المجموعات وفروعها، بحيث يأخذ القارئ لمحةً عن ديانات المنطقة العربية في نهاية القرن السادس للميلاد، زمن ولادة ظاهرة الحنفاء الجاهليين.

أولاً ــ النصرانية:

انتشرت النصرانية بشكل واضح للعيان بين عرب الجاهلية، حيث اعتنقتها قبائل بأكملها حيناً، وأحياء من قبائل أخرى، حيناً آخر، فيما اقتصر وجودها في بعض المناطق على أفراد فرادى ضمن الجسم القبلي، ويفيدنا

اليعقوبي أن: «من تنصّر من أحياء العرب قومٌ من قريش من بني أسد بن عبد العزى، منهم عثمان بن الحويرث، وورقة بن نوفل، ومن بني تميم: بنو امرئ القيس بن زيد مناة، ومن ربيعة: بنو تغلب، ومن اليمن: طيء ومذحج وبهراء وسليم وتنوخ وغسان ولخم»[1].

• ـ الأورثوذوكسية:

كان المذهب الأورثوذوكسي الديانة الرسمية للإمبراطورية البيزنطية منذ القرن الرابع للميلاد، فيما كانت القبائل العربية الموالية لبيزنطة في سورية ومصر تعتنق المذهب اليعقوبي، وينحصر تأثير الأورثوذوكسية على شبه الجزيرة العربية بالبعثات التبشيرية التي كانت ترعاها القسطنطينية، في محاولةٍ لبسط نفوذها الروميّ إلى عمق شبه الجزيرة العربية، وقد كان الحضور الأورثوذوكسي في مدن الجزيرة، فرديّاً، يتبدى من خلال الرقيق الروميّ، والتجار البيزنطيين، الذين يفدون للاتجار في المواسم، ولم يصل من الإخباريين أية أنباء تفيد بأن قبائل عربية، أو أجزاء منها، خارج حدود السيطرة البيزنطية، قد اعتنقت هذا المذهب.

يقول الأورثوذوكس: إن الله واحدٌ، في ثلاثةِ أقانيم متساوية في الجوهر، وهي الآب والابن والروح القدس، وأن المسيح هو الحَمَلُ المعدّ للتضحية منذ بدء الخليقة، وهو ابن الله الوحيد، المساوي له في الألوهة والجوهر، وأنه قد تأنْسَنَ، ونزل إلى الأرض ليصلب فداءً عن خطايا البشر.

وللسيدة العذراء موقع رفيع عند الأورثوذوكس فهي والدة الإله التي حملت الربّ في أحشائها، فنالت بذلك موقع الشفيع عندهم، وقد عرف المذهب الأورثوذوكسي عند الإسلاميين فيما بعد، بمذهب أصحاب التثليث، وقد نزلت آية قرآنية تبين ضلال أصحابه وتسمهم بالكفر «لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة»[2].

• ـ اليعقوبية:

انتشر المذهب اليعقوبي في بلاد غسان على تخوم الجزيرة العربية، كما انتشر في مصر والحبشة حيث كانت اليعقوبية ديانة رسمية معترف بها حتى من قبل بيزنطة التي كانت تسيطر على البلدين، وقد دخلت اليعقوبية إلى اليمن مع دخول الأحباش إليها حيث أقيمت كنائس يعقوبية أثناء فترة الاحتلال الحبشي.

يقول اليعاقبة بالتثليث، لكنهم بخلاف العقيدة الأورثوذوكسية يَرَون أن السيد المسيح ذو طبيعةٍ واحدة، هي الطبيعة الإلهية، وأنه لم يصبح بشراً قط، وبذلك أنكروا الناسوت الأورثوذوكسي.

• ـ النسطورية:

يقول النساطرة: «إنّ الكلمة اتّحدت بجسد عيسى عليه السلام، مَثَلُ ذلك، كمَثَلِ إشراق الشمس من كوّةٍ على بللوره، أو ظهور النقش على الشمع إذا طبع بخاتم»[3]. وعلى هذا لم يولد المسيح إلهاً، بل اتحد جسده بالكلمة الإلهية لحظة الولادة، وهذا الاتحاد هو بمثابة الإشراق أو الفيض الإلهي الذي منح يسوع نعمة ربانية عظيمة أهلته فيما بعد لإتيان المعجزات.

إن ماحدث هو اتحاد الناسون باللاهوت، أو الكلمة بالجسد، وهما جوهران متمايزان، جوهر قديم، وجوهر محدث، وفي هذا السياق، فلا وجود لوالدةِ الإله في عقيدة النساطرة، فمريم العذراء لم تحمل في أحشائها إلهاً بل بشراً.. وعيسى بن مريم ليس أقنوماً إلهياً، مساوياً في جوهره للخالق، لأن الذات الإلهية عندما فاضت بنعمتها على يسوع، تم ذلك دون نقصان أو زيادة فيها، والأقانيم النسطورية إنما هي «الوجود ـ العلم ـ الحياة»[4]، وهي ليست زائدة على الذات وليست هو.

وفي مسألةِ الصّلب ينقسم النساطرة إلى قسمين، القسم الأول يرى أن التشبيه وقع على شخصٍ آخر تم صلبه عوضاً عن يسوع، كما ورد فيما بعد في نصوص القرآن الكريم، والقسم الثاني يقول أن الكلمة انفصلت عن

الجسد لحظة الموت، وأن الصلب قد وقع على شخص عيسى بن مريم، لكن الموت وقع على الجسد لأن الكلمة لاتموت.

ومؤسس هذا المذهب هو نسطوريوس، بطرك أنطاكية، الذي اعتبر من قبل الكنيسة الرسمية البيزنطية من أصحاب البدع، فتم عزله عن كرسي أنطاكية، ونُفي إلى البتراء في الأردن، وقد تحولت هذه المدينة إلى مركز للكنيسة النسطورية، ومصدر للإشعاع الديني النسطوري باتجاه عمق الجزيرة، والعراق، حيث انتشرت الكنائس النسطورية بقوة، بتشجيع ودعم من الدولة الساسانية، التي كانت ترى فيها البديل المحلي المناوئ، لديانة الدولة البيزنطية الرسمية، في المنطقة العربية.

وقد تغلغل المذهب النسطوري في شبه الجزيرة عبر الطرق التجارية الآتية من الأردن في الشمال الغربي، وصولاً إلى نجران واليمن جنوباً، فيما انتقل من الحيرة في العراق إلى اليمامة فوادي الدواسر، إلى أن دخلت النسطورية بقوة إلى اليمن مع الانتصار الفارسي، وانتشرت كنائسها على حساب الكنائس اليعقوبية بعد اندحار الأحباش اليعاقبة هناك.

• ـ الآريوسية:

«كان آريوس طويل القامة، نحيل الجسم، مكتئب المظهر، ذا منظر تبدو فيه آثار خشونة العيش، وكان معروفاً بأنه من الزهاد كما يستدل على ذلك من ملبسه وهو جلباب قصير من غير كمين تحت ملحفةٍ يستخدمها عباءة، وكانت طريقته في الحديث ظريفة وحججه مقنعة، وكان له من بين رجال الدين عدد كبير من المؤيدين»[5].

تقول الآريوسية أن «المسيح لم يكن هو والخالق شيئاً واحداً، بل كان (المسيح) الكلمة، أول الكائنات التي خلقها الله وأسماها... وإذا كان المسيح قد خُلق، فلابد أن يكون خلقه من لاشيء، أي من غير جوهر الأب، لأن المسيح والآب ليسا من مادةٍ واحدة»[6].

لقد أوجد الكاهن الاسكندراني الشاب، انشقاقاً خطيراً في الكنيسة

المسيحية، عندما أعلن آراءه عن خلق يسوع، أمام المجمع الكنسي النيقي الذي انعقد عام 325م برعاية الإمبراطور قسطنطين الكبير، ولما كانت الأغلبية الساحقة التي حضرت هذا المجمع من أتباع المذهب الأورثوذوكسي، الذي يرى أن القول بخلق يسوعَ ونفي ألوهته هرطقةً لايمكن غفرانها، فقد صدر «قرار بِلَعْنِ آريوس وحرمانه كنسياً، وتم نفيه من البلاد، كما صدر مرسومٍ إمبراطوري بإحراق كافةِ كتبه، وباعتبار إخفاء أي كتاب منها جريمةً يُعاقب عليها بالإعدام»[7].

على أنّ الاضطهاد الكنسي الرسمي، لم يمنع الآريوسية من الإنتشار في المنطقة العربية، حتى أنها استطاعت الانتصار في القسطنطينية ذاتها فيما بعد، معقل الديانة الأورثوذوكسية، عندما اعتنق قنسطنطيوس ابن قسطنطين الكبير المذهب الآريوسي واعتبره الديانة الرسمية للبلاد، وقد دام هذا الأمر قرابة خمسين عاماً (323 ـ 373م)، تمكنت الآريوسية أثناءها، من تثبيت أقدامها إلى هذا الحد أو ذاك، في المنطقة، بدءاً من القرن الرابع للميلاد.

ثانياً ـ اليهودية ـ النصرانية:

اتخذت المسيحية في فلسطين، إثر انتشارها بين اليهود مساراً مختلفاً نوعاً ـ عن انتشارها بين «الأمم من الوثنيين»، وإذا كانت المسيحية البوليسية قد أعلنت استقلالها عن الناموس اليهودي، فإن اليهود النصارى بقوا متمسكين بأحكامه، يحترمون السبت، ويطبقون التعليمات التوراتية، بالإضافة إلى إيمانهم المسيحي.

وهذه الخصوصية التي ميزت اليهود ـ النصارى، كانت سبباً في تعرضهم لاضطهاد مزدوج من يهود فلسطين، من جهة، ومن الكنيسة المسيحية البولسية، ـ بعد أن أصبحت الأورثوذوكسية الديانة الرسمية للإمبراطورية، ـ من جهة أخرى.

واضطر هؤلاء للنزوح عن فلسطين حيث انتقل قسم منهم إلى الأردن والحجاز واليمن فيما نزح قسم آخر إلى شرق الجزيرة والعراق..

وعلى المستوى العقيدي، كانت اليهودية النصرانية ممثلةً في ثلاث فرق:

• ـ الناصريون:

وهو التيار الذي تمسك بألوهة يسوع من جهة، وبالناموس اليهودي من جهةٍ ثانية، في إطار تلفيق ذهني بين البولسية واليهودية التوراتية.

• ـ الأبيونيون:

أعلن هؤلاء رفضهم للكنيسة البولسية، واعتبروا أن بولس مرتدٌّ عن الدين، بإغفاله التمسك بالناموس اليهودي، وإباحته المحرمات التي حرمتها التوراة، وهم يرون أن المسيحية امتداد لليهوديّة، والسيد المسيح عند هؤلاء نبيٌّ عظيم، وهو ليس إلهاً ولا ابناً لله، والتثليث في عقيدتهم غير قائم، فجوهر مسيحيتهم هي العقيدة الخلاصيّة، والتي تقول بأن المسيح قد نال من الله سبحانه وتعالى قوةً إلهية بحكم كونه مخلصاً، وأن ذلك قد تم في اللحظة التي نال بها المعمودية على يد يوحنا المعمدان في الأردن.

• ـ الكزائيون:

يقول هؤلاء أن الإنسان الأول آدم، كان على الدين الحقيقي الصحيح لأن الروح الإلهي سكن فيه، لكن الجنس البشري أضاع هذه الديانة شيئاً فشيئاً، وانحرف عن الاتجاه الصحيح، فوقع في الخطيئة، ولأجل إنقاذ البشر أرسل الله فيهم أنبياء مثل هابيل وأخنوخ وإبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى.

أمّا اليهود فقد ضلّوا الرسالة الحقيقية لهؤلاء الأنبياء وأضاعوا جوهرها فغرقوا في المحسوس لدرجةٍ تحولت معها الديانة إلى مجرد احتفالات طقسية.

والله سبحانه، كيّ يطهر الناموس، ناموس موسى، ويعيد الديانة الحقيقية، أرسل روحه الذي حلّ في المسيح المخلص وتمم رسالته.

لقد أنكر أصحاب هذا المذهب تعاليم بولس، ونفوا ألوهة المسيح، والتثليث الأقنومي وكانوا يصلون مستقبلين بيت المقدس بعد طقوس من الوضوء والاغتسال.

لقد اضطر اتباع المذاهب اليهودية ـ النصرانية إلى النزوح الجماعي، نتيجةً للاضطهاد الديني من فلسطين، وذلك بالفرار إلى أرضٍ لاينالهم فيها انتقام اليهود، ولاتطالهم يد بيزنطة، فلجأوا إلى شبه جزيرة العرب، التي بقيت في عمقها منيعةً على الروم والفرس على حدٍّ سواء، وقد استمد وجود هؤلاء على أرضها حتى مجيء الإسلام، يدلنا على ذلك تكرار ذكرهم عند الإخباريين في حديثهم عن الفترة التي سبقت الدعوة، حيث ورد ذكر هؤلاء تحت اسم «الكسائيين»، و«الأبيونيين»، مما يؤكد حضورهم المشخص في شبه الجزيرة، حتى نهاية القرن السادس للميلاد.

ثالثاً ـ اليهوديّة:

كان لليهودية حضور في شبه جزيرة العرب منذ القرن الأول للميلاد حيث، خرجت دفعة كبيرة في فلسطين إثر تدمير أورشليم من قبل الجيش الروماني، واستقرت في أعالي الحجاز ويثرب حتى مجيء الإسلام، وقد انتقلت اليهودية إلى قسم من القبائل العربية منذ ذلك الحين، حيث كانت لاتزال ديانة تبشيرية(*)، ويظهر من مواضع التلمود «أن نفراً من العرب دخلوا في اليهوديّة، وأنهم جاؤوا إلى الأحبار فتهودوا أمامهم، وفي هذه المدّونات التلمودية، تأييد لروايات أهل الأخبار التي تذكر أن اليهوديّة كانت في حمير، وبني كنانة، وبني الحارث بن كعب، وكندة، وغسان»[8] وذكر اليعقوبي أن ممن تهود من العرب «اليمن بأسرها، وقوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير، وتهود قسم من بني الحارث بن كعب وقوم من غسان وقوم من جذام»[9].

وقد انتشرت اليهودية بشكل خاص في اليمن، في عهد الملك ذي نواس(*)، الذي حاول فرضها بالقوةِ لتصبح الديانة الرسمية لليمن، وذلك قبل هزيمته على يد الأحباش النصارى.

(*) تم إغلاق اليهودية بمنع الانتساب إليها من الخارج، وبالتالي تحويلها من ديانة تبشيرية إلى ديانة مغلقة، نهائياً، في القرن الثالث عشر للميلاد.

(*) وهو صاحب الأخدود الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، وهو الذي أوقد ناراً ←

لقد انقسمت اليهودية، ومنذ القرن الأول للميلاد إلى أربع فرق رئيسة وهي:

• ـ الفرّيسيون:

ويشكلون النسبة الأكبر بين يهود فلسطين، قبل تدمير الهيكل سنة 70 للميلاد. ويؤمن هؤلاء بقدسية جميع أسفار التوراة ويتمسكون بالتعاليم التلموديّة بدقّة، ويعدّون التلمود كتاباً مقدساً كالتوراة، باعتباره يضم التعاليم الشفهية للأنبياء منذ عهد موسى.

يؤمن الفريسيون بالحياة الأخرى، ويوم الحساب، وهم بحسب الإنجيل من سلم المسيح إلى الصلب، حيث كانوا أشد الفرق اليهودية عداءً للمسيحية

• ـ الصدوقيون:

ينكر أتباع هذا المذهب وجود حياةٍ أخرى، وبعث ونشور، ولايؤمنون إلا بالأسفار الخمسة الأولى من التوراة، وينكرون ماعداها، كما أنهم ينكرون التلمود.

• ـ السامريون:

نشأت هذه الفرقة في القرن الأول للميلاد، ولاتزال بقايا منهم تعيش حتى الآن في مدينة نابلس، ولغتهم هي اللغة العربية، والسامريون لايعترفون بالأنبياء بعد موسى، ولايؤمنون مثلهم كمثل الصدوقيين، إلا بالأسفار الخمسة الأولى من التوراة، إلا أنهم بخلاف أولئك يؤمنون بالحياة الأخرى، وقد كانت هذه الفرقة في صراع دائم مع اليهود أصحاب التلمود، ومع الرومان، وقد هاجر قسم كبير منهم في فلسطين بعد تدمير مقرهم المقدس

← عظيمة في حفرةٍ ثم خيّر النصارى اليمنيين بين اعتناقهم اليهودية وبين الموت حرقاً، وقد قتل، وقيل انتحر، أثناء غزو أبرهة الحبشي لليمن.

أثناء الاحتلال الروماني. وقد عرف عنهم أنهم كانوا يتزاوجون مع العرب من غير اليهود.

• ـ الأسينيون:

وهم فرقة يهوديّة صوفيّة، عاش أصحابها في مغاور وكهوف منطقة قمران، غرب البحر الميت، وقد جاء اكتشاف مخطوطات البحر الميت الشهيرة عام 1947 ، ليُلقي ضوءاً على هذه الجماعة، وعلى كتبها وأشعارها المقدسة. يقول يوسيفوس مؤرخ القرن الأول للميلاد في كتابه (حروب اليهود) أن «الأسينيين ولدوا يهوداً، وتحابّوا أكثر من غيرهم، وأنهم اعتزوا بالعفة والتعفف وجعلوا من التغلب على الشهوات فضيلة، وهؤلاء الرجال يحتقرون الثروة والغنى، ويميلون للتآلف والمشاركة، والقانون بينهم يقضي بأن يقدم الداخل في زمرتهم ماعنده للجماعة، فلا ترى بينهم ظاهرة فقر ولاظاهرة غنى»[10] وقد عاش هؤلاء حياةً جماعيةً تقوم على نظام صارم من التقشف والملكية الجماعية واتبعوا طقوساً دقيقةً في التطهّر، محرّمين على أنفسهم العمل في التجارة أو جمع المال، وقد اشتهروا بالأمانة والمسالمة، يأبون أن يحملوا شيئاً من أدوات الحرب، غير أنهم انضموا إلى غيرهم من الشيع اليهوديّة في قتال الرومان حين هاجمت فصائل طيطس، بيت المقدس وتعرضوا نتيجة ذلك للفتك والاضطهاد من قبل روما بعد تدمير الهيكل، فتبعثروا في غور الأردن وشمال الجزيرة هرباً من بطش الرومان.

رابعاً ـ الصابئة:

• ـ الصابئة المندائيون: نصارى القديس يوحنا المعمدان.

على التخوم الشمالية الشرقية لجزيرة العرب، في منطقة الأهوار في العراق، لاتزال تعيش حتى اليوم طائفةٌ دينية صغيرة[*]، تطلق على نفسها اسم (مندائي)[**]، وقد أطلق العرب عليها فيما مضى لقب «المغتسلة»، نظراً لطقوس التعميد والوضوء بالماء، التي كان هؤلاء يكثرون من ممارستها، في قراهم القائمة على ضفاف الأنهار ومجاري المياه.

وقد قدم هؤلاء، منذ القرن الأول للميلاد، من موطنهم الأصلي فلسطين، هرباً من الاضطهاد الديني اليهودي، والبطش الروماني بعد الانتفاضة اليهودية الفاشلة سنة 70 للميلاد، ويؤكد كتاب «حرّان كويثا»[11] وهو أحد كتبهم التاريخية هرب «الناصورائي»(***) من اضطهاد اليهود لهم في أورشليم وكيف بحثوا عن مأوى لهم في جبال ميديا، ومدينة حرّان في تلك الجبال، وكيف أن مضطهديهم قد عوقبوا بتدمير أورشليم، ويستمر كتاب حرّان كويثافي سرد القصة فيقول: وفي حرّان وجدوا إخواناً لهم في الدين ثم من هناك بدأت هجرتهم الثانية تحت رعاية الملك (ارطبانوس) إلى القسم الأدنى من بلاد مابين النهرين حيث أقاموا لهم مراكز في محل يدعى (طيب ماثة) - مدينة أثرية تدعى الطيب جنوب شرق مدينة العمارة - بين واسط وخوزستان... ويذكر الكتاب أن وفداً من الصابئين (المندائي) قد ذهب لمقابلة القائد العربي، بعد الفتح الإسلامي، وأنه قد أقرهم على دينهم كأصحاب كتاب، وبقوا بين المسلمين يؤدون الجزية»[12]. ودين الصابئة المندائيين، كما ورد في كتبهم الدينية يتلخص في أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر ويؤمنون بالحساب والعقاب وأن الأبرار منهم يذهبون بعد الوفاة إلى عالم النور وأن المذنبين يذهبون إلى عالم الظلام، وهم يمارسون الصوم بالامتناع عن أكل اللحوم مدة خمسة أسابيع تتفرق أيامها على السنة، وهم ينزهون الله غاية التنزيه ويعتقدون «أن مقرّ الملائكة (ملكي) هو في الكواكب، ولذلك فهم يعظمون هؤلاء الملائكة لا الكواكب نفسها»[13].

وكبير الأنبياء عند الصابئة هو ابراهيم الكبير، ويلحظ حضوره الكبير في الطقوس والأدعية، بينما يحتل القديس يوحنا المعمدان، مكانة شديدة

(*) في ستينات هذا القرن، لم يكن عدد الصابئة الباقين في الجنوب العراقي يتعدى 20000 نسمة.

(**) مندائي أو منداعي كلمة آرامية قديمة تعني: العارف، من الفعل مدّعا أي عرف وعلم.

(***) الناصورائي: الكاهن العارف.

الخصوصية، إلى حد أنهم كانوا يعلنون عن أنفسهم من فترة الانتداب البريطاني بأنهم «مسيحيون من أتباع يوحنا المعمدان»[13]، ويوحنا أو «يهيا يهانا» كما يسمونه، معلّم عظيم، جاء إلى الدنيا بأمر من الرب وبمهمة خاصة، وكان يمارس وظيفة التعميد، وإليه تنسب تغييرات دينية هامة، كتقليل أوقات الصلاة من خمسٍ إلى ثلاث يومياً، كما تنسب إليه معجزات تعالج بصورة رئيسية شفاء ابدان الناس وأرواحهم فهو بفضل علمه «لايفلّه الحديد ولاتحرقه النار ولايغرقه الماء»[14].

إن أكثر شيء، لفت نظر جيران الصابئة، هو كثرة وضوئهم واغتسالهم، في الماء الجاري، ولديهم منه نوعان، «الطهارة الكبرى» حيث يجري غسل كل الجسم والرأس في الماء الجاري، و«الطهارة الصغرى»، وهي وضوء يسبق الصلاة ويجري وفق التسلسل التالي[15]:

1 ـ غسيل الوجه ثلاث مرات.

2 ـ رسم الجبين بالماء من اليمين إلى الشمال.

3 ـ تنظيف الأذنين بالماء بواسطة الإصبعين، ثلاث مرّات.

4 ـ تنظيف الأنف بنشق الماء ثلاث مرّات من راحة اليد اليمنى.

5 ـ غسيل الأعضاء السفلى.

6 ـ غسيل الفم من الداخل ثلاث مرات.

7 ـ غسيل الركبتين.

8 ـ غسيل الساقين.

9 ـ إنهاء الوضوء بالدعاء: «أنا فلان ابن فلانة، تعمدت على عماد إبراهيم الأكبر، وعمادي سيكون حارساً لي ويرفعني إلى أعلى».

ومن الجدير بالذكر، هو أن تعبير (مسيحي من أتباع يوحنا)، لايعني على الإطلاق تصنيف الصابئة بين التيارات اليهودية ـ النصرانية، فيسوع في المخطوطات المندائية «قد حرّف كلمات النور وأبدلها بالظلام وغيّر دين أولئك الذين كانوا على ديني»[16]، وهو ليس له حضور كنبيّ في الأدب الديني الصائبي على الإطلاق.

وللصابئة المندائيين تراث أدبي ديني، غزير، وكتبهم المقدسة هي:

1 ـ كنز ربه: وهو مخطوط كبير يحتوي على فقرات كثيرة موضوعها نظام تكوين العالم وحساب الخليقة، وشؤون الموتى.

2 ـ دراشه أديهيا: مجموعة فقرات تتناول شؤون النبي يحيى.

3 ـ سيدره إد نشماثه: طقوس المعمودية وسرها المقدس.

4 ـ اسفر ملواشه: مخطوط التنجيم والفلك.

5 ـ تفسير بغره: وهو ديوان يعالج المعنى الداخلي للواجبات الطقسية.

6 ـ الف ترسر شياله: 1012 سؤال حول الطقوس والشعائر.

7 ـ انياني: ويتضمن الطهارة الصغرى أي الوضوء.

8 ـ ديوان طقوس التطهر: طراسه.

9 ـ دواوين متنوعة: يبلغ عددها 24 ديواناً.

10 ـ دواوين الرقيّ والتعاويذ: قماهي، زرستي.

• ـ الصابئة الحرّانيون:

هناك فرقٌ واضح بين صابئة حرّان وبين الصابئة الأصليين (المندائي) أو مايسميهم ابن النديم صابئة البطائح أو المغتسلة، وقد فطن بعض فقهاء المسلمين لهذا الفرق فذكر ابن القفطي في كتابه تاريخ الحكماء أن «أبا حنيفة حين سئل عن الصابئة الحرانيين، وهم معروفون بعبادة الكواكب، أجراهم مجرى عبدةِ الأوثان على تحريم المناكحة والذباحة»[18].

وعلى مايبدو فقد ظلت العادات الوثنية تعيش بين صابئة حرّان إلى زمن متأخر من العصر الإسلامي، ويرى بعض المؤرخين أن الصابئة الأصليين (المندائي) قد كانوا في حرّان في الوقت الذي كان يقطنها قوم وثنيون متفلسفون فارّون من اضطهاد الكنيسة، وقد تسمى هؤلاء الوثنيون باسم الصابئة للاستفادة من التسامح الديني في العصر الإسلامي، الذي قدمه الإسلام لأهل الكتاب.

الملحق الثاني:

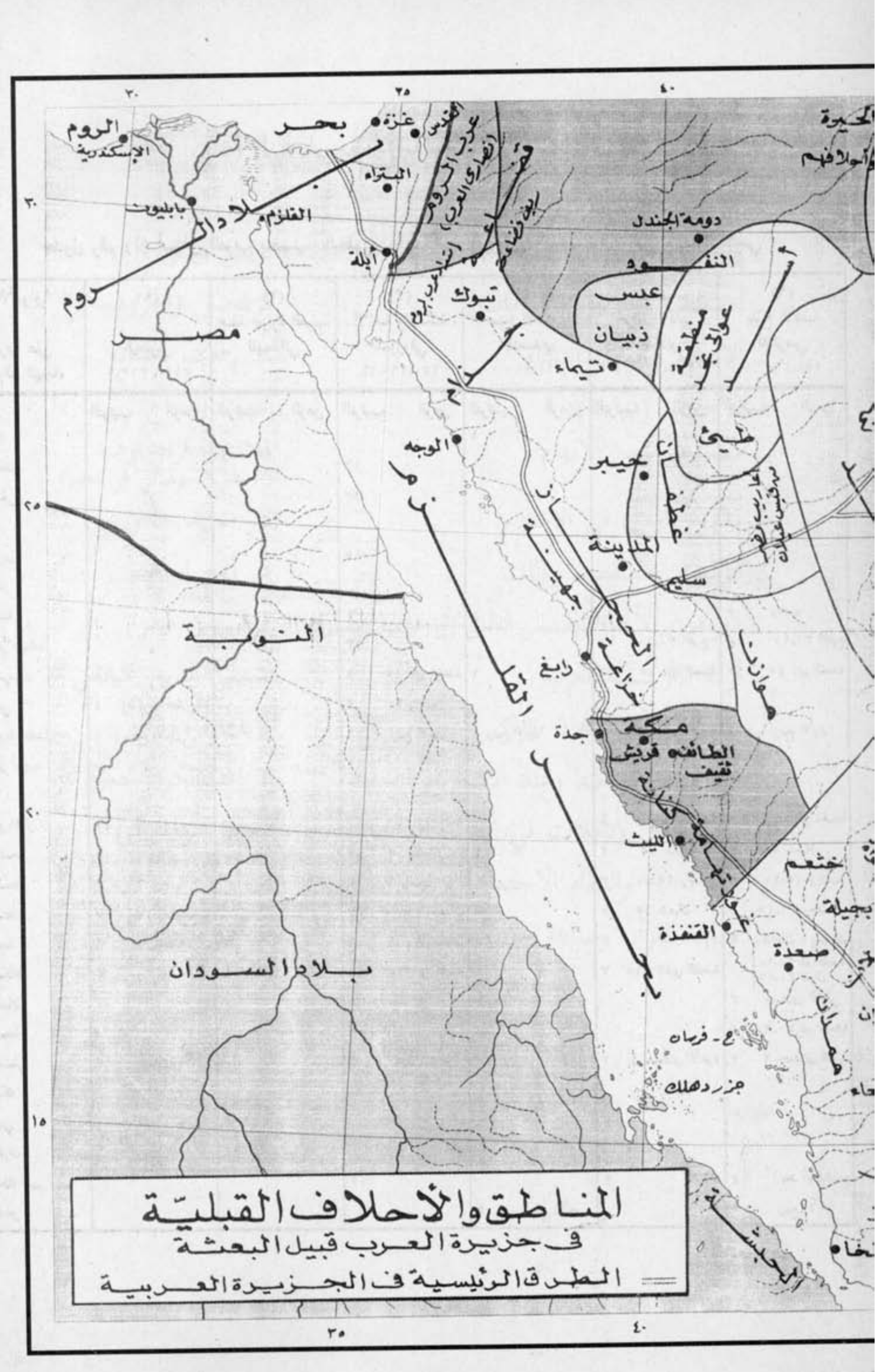
الخرائط والجداول

اصدارات ١٩٩٨

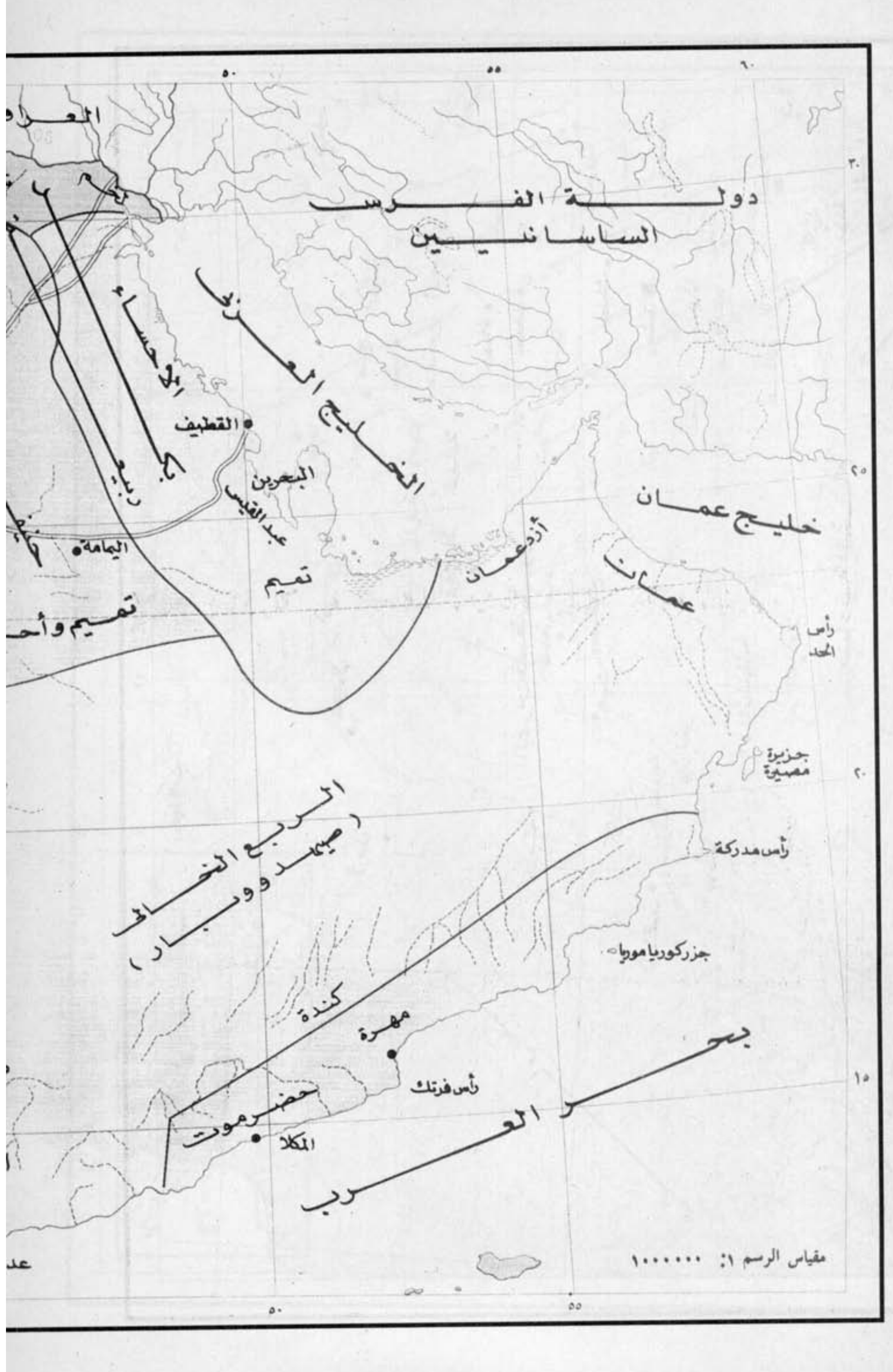
الكتاب	المؤلف
ـ هرمس (المثلث العظمة)	لويس مينار
ـ أصحاب الجلالة (الاهرامات)	ڤويتكس زاماروفسكي
ـ الاسلام وحقوق النساء	د. رفعت حسان
ـ الأحناف (دراسة)	عماد الصباغ
ـ مصر في زمن الإبهام	فلاديمير فرادونوف (السفير السوفياتي في مصر)
ـ مفهوم العدل في الاسلام	د. مجيد خدوري
ـ الاسلام والسلطان والملك	د. أيمن ابراهيم
ـ الفرعون الأخير (رمسيس الثالث /أو غروب حضارة)	فرانسيس فيفر
ـ أزمة الماركسية العربية	شمس الدين كيلاني
ـ مفهوم الانسان عند ماركس	أريك فروم
ـ في اسرار التوحيد (عند الشيخ أبي سعيد)	د. عبدالكريم سعود
ـ قوى وآفاق (تأملات في الطبيعة الانسانية والنظام الاجتماعي)	نعوم تشومسكي
ـ صابئة القرآن وصابئة حران	ميشيل تاردو

جدول رقم (1) أسواق العرب بحسب: اليعقوبي، الهمذاني، المرزوقي، القلقشندي، البغدادي، الألوسي

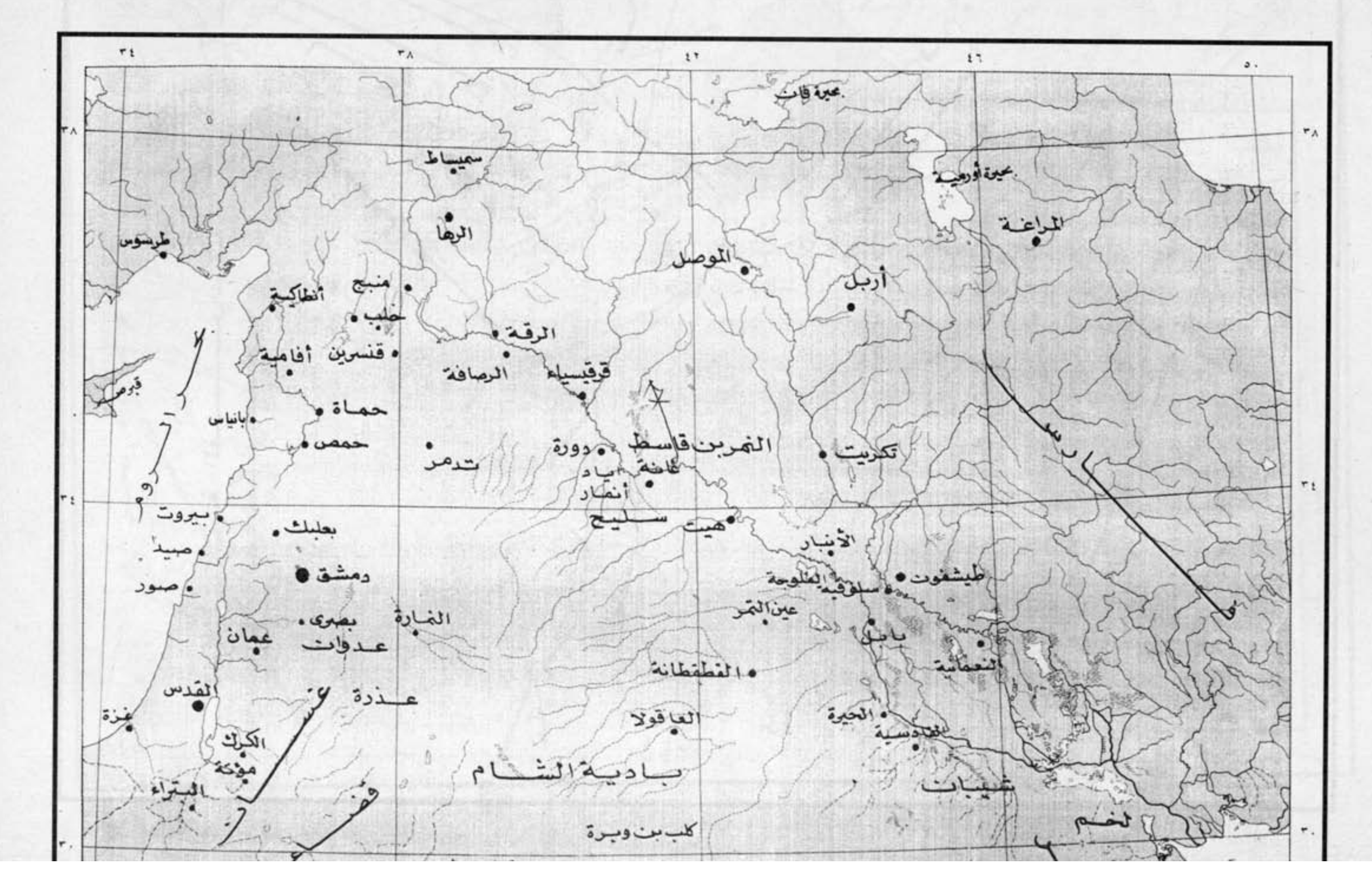
الأسواق مرتبة على حروف الهجاء	(1) اليعقوبي ١:٣١٣ - ٣١٤ الترتيب	(1) الزمن	(2) صفة جزيرة العرب للهمذاني الترتيب	(2) الزمن	(3) الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ٢: ١٦١-١٧٠ الترتيب	(3) الزمن	(4) صبح الأعشى للقلقشندي ١:٤١٠-٤١١ الترتيب	(4) الزمن	(5) خزانة الأدب للبغدادي ٤: ٣٦٠-٣٦٢ الترتيب	(5) الزمن	(6) بلوغ الأدب للألوسي ١: ٢٦٤-٢٧٠ الترتيب	(6) الزمن
١ أدم							٤					
٢ أذرعات					١٦							
٣ الأسقى					١٧							
٤ بدر			٧									
٥ بصرى					١٥							
٦ الجند			٣									
٧ حباشة											٥	رجب
٨ حجر اليمامة			١٠		١٣				١٠	١٠-٣٠ المحرم	١٥	١٠-٣٠ المحرم
٩ حضرموت	٨				٨	١٥ ذي القعدة	٦		٦	١٥ ذي القعدة	١١	١٥ ذي القعدة
١٠ دبي	٤	[ذكرت هنا:ريّا]			٤	٣٠ رجب						
١١ دومة الجندل	١	ربيع الأول			١	ربيع الأول	١	ربيع الأول	١	١٥ ربيع الأول	١	ربيع الأول
١٢ دير أيوب					١٤							
١٣ ذو المجاز	١٠		٥		١٠	١-٨ ذي الحجة			٨	١-٨ ذي القعدة	١٣	١ - ٨ ذي الحجة
١٤ الشحر	٥				٥	١٥ شعبان	٤		٤	١٥ شعبان	٢	١٥ شعبان
١٥ صُحار	٣	١ رجب			٣	١ رجب			٣	١٠-١٥ رجب	٦	١٠-١٥ رجب
١٦ صنعاء	٧	١٥ رمضان			٧	١٥-٣٠ رمضان	٧		٥	١٥ شعبان	٩	١٥-٣٠ رمضان
١٧ عدن	٦	١ رمضان	١		٦	١- ١٠ رمضان	٥				٨	شعبان - رمضان
١٨ عُكاظ	٩		٦		٩	١٥ ذي الحجة	٨		٧	١٥-٣٠ذي القعدة	١٠	١٠-٢٠ ذو القعدة ١٥-٣٠ شوال
١٩ عُمان							٣				٣	جمادى الأولى
٢٠ مجنة			٨		١١						١٢	٢٠-٣٠ ذو القعدة
٢١ المشقر	٢	جمادى الأولى			٢	١ - ٣٠ ج٢			٢	١ جمادى الآخرة	٤	٢ جمادى الثانية
٢٢ مكة			٢									
٢٣ منى			٩									
٢٤ نجران			٤									
٢٥ نطاة خيبر					١٢				٩		١٤	بعد أيام الحج
٢٦ هجر			١١				٢	ربيع الآخر			٢	ربيع الآخر



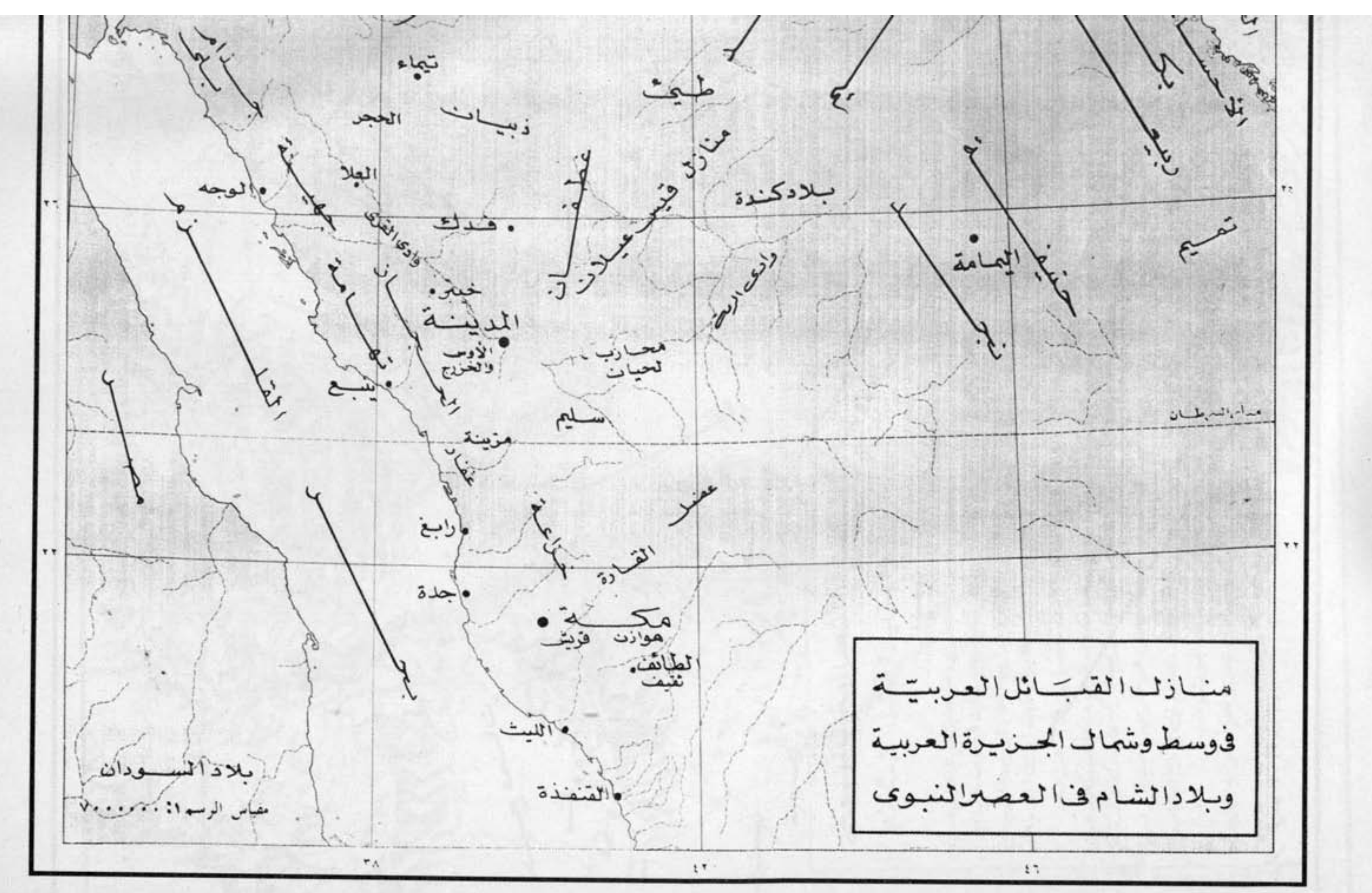
المناطق والأحلاف القبليّة
في جزيرة العرب قبيل البعثة
الطرق الرئيسية في الجزيرة العربية
الروم
الإسكندرية
بحر
غزة
القدس
البتراء
بابليون
القلزم
أيلة
تبوك
مصر
روم
الحيرة
دومة الجندل
النفود
عبس
ذبيان
تيماء
طيئ
خيبر
الوجه
المدينة
سليم
النوبة
رابغ
جدة
مكة
الطائف
قريش
ثقيف
هوازن
الليث
خثعم
بجيلة
القنفذة
صعدة
همدان
ح. فرسان
جزر دهلك
بلاد السودان
٣٠
٣٥
٤٠
٢٥
٢٠
١٥



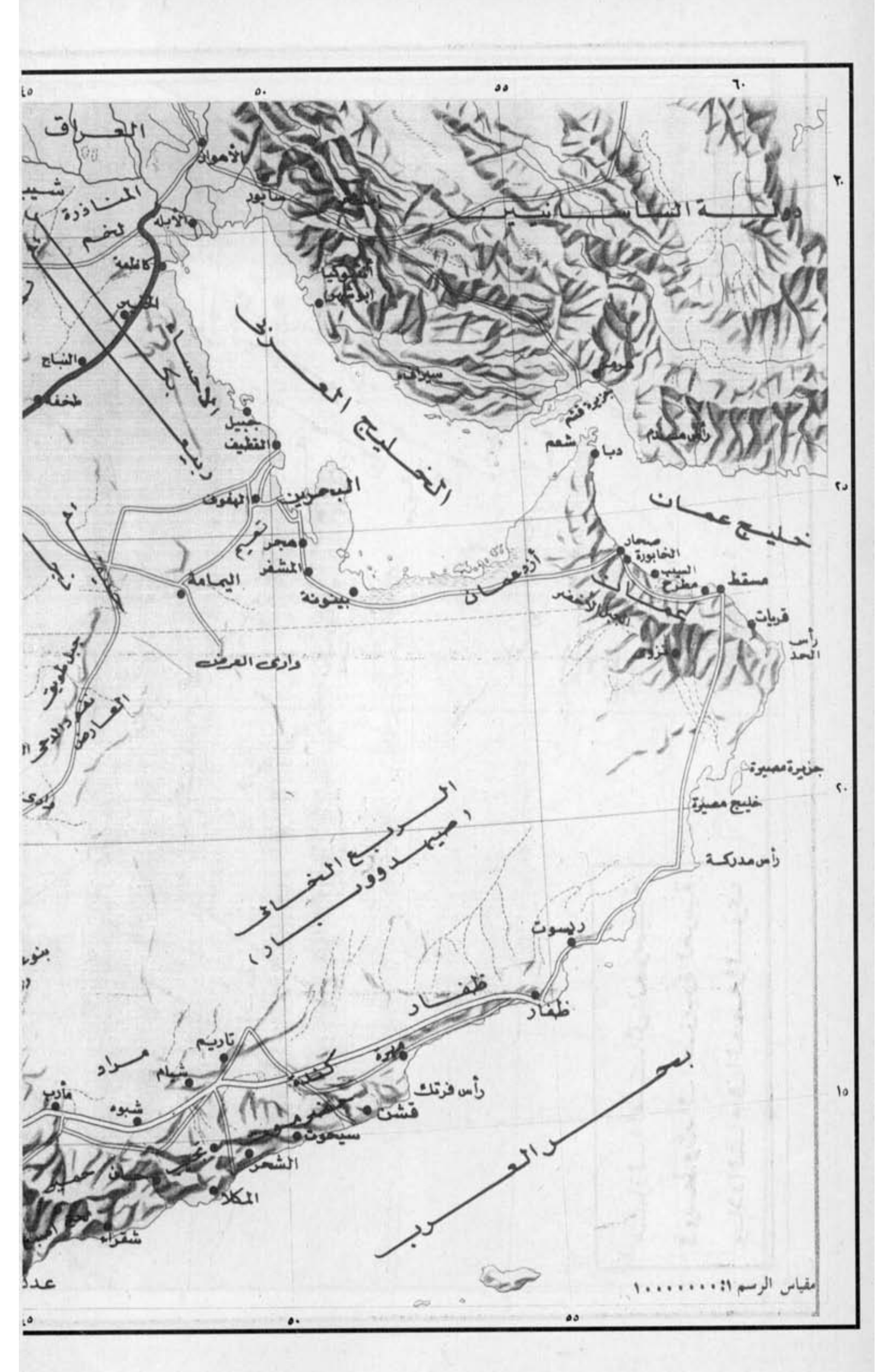
دولـــة الفـــرس
الساســانيــين
الخــليــج العــربي
الإحساء
القطيف
البحرين
عبد القيس
اليمامة
تميم
أزد عمان
خليج عمان
عمان
رأس الحد
جزيرة مصيرة
رأس مدركة
الربع الخالي
(صيهد ووبار)
جزر كوريا موريا
كندة
مهرة
رأس فرتك
حضرموت
المكلا
بحر العرب
مقياس الرسم ١: ١٠٠٠٠٠٠



بحيرة فان
سميساط
بحيرة أورمية
المراغة
الرها
طرسوس
الموصل
منبج
أنطاكية
حلب
أربل
الرقة
قنسرين
أفامية
الرصافة
قرقيسياء
قبرص
حماة
بانياس
حمص
تدمر
دورة
النمر بن قاسط
تكريت
عانة
إياد
أنمار
بيروت
بعلبك
هيت
سليح
صيدا
الأنبار
دمشق
طيشفون
صور
سلوقية
الفلوجة
عين التمر
بصرى
النارة
بابل
عمان
عدوان
النعمانية
القطقطانة
القدس
عذرة
غزة
الحيرة
العاقولا
القادسية
الكرك
مؤتة
بادية الشام
شيبان
البتراء
لخم
كلب بن وبرة



منازل القبائل العربيّة
في وسط وشمال الجزيرة العربية
وبلاد الشام في العصر النبوي



العراق
المناذرة
لخم
الأهواز
سابور
الأبله
كاظمة
النباج
جبيل
القطيف
ربيعة
الخليج العربي
دولة الساسانيين
سيراف
جزيرة قشم
رأس مسندم
شعم
دبا
البحرين
الهفوف
هجر
المشقر
بينونة
اليمامة
وادي العرض
أزد عمان
خليج عمان
صحار
الخابورة
السيب
مطرح
مسقط
قريات
رأس الحد
نزوى
جزيرة مصيرة
خليج مصيرة
رأس مدركة
الربع الخالي
ريسوت
ظفار
تاريم
مراد
شبام
مأرب
شبوه
رأس فرتك
قشن
سيحوت
الشحر
المكلا
شقراء
بحر العرب
عدن
مقياس الرسم ١:١٠٠٠٠٠٠٠
٤٥
٥٠
٥٥
٦٠
٣٠
٢٥
٢٠
١٥



الطرق التجارية الرئيسية
فى الجزيرة قبل الإسلام
التهامية وهى الطريق الساحلية من غزة إلى عدن.
الطريق من مكة إلى فلسطين وجنوب الشام.
طريق الجادة من مكة إلى المدينة.
الطريق الجانبية من مكة إلى المدينة.
طريق المدينة إلى العراق.
الطريق الداخلى عن طريق صنعاء من مكة إلى عدن.
النجدية وهى الطريق الرئيسى من مكة والمدينة إلى الأبلة وهذه هى طريق زبيدة ومنها يتفرع طريق تذهب إلى جنوب الشام وهى المسماة أحيانا بالحوشية.
الطريق الذى يمر بأهم أسواق الجزيرة.
طرق أخرى.
بلاد الشام
الروم
الإسكندرية
البيزنطية
الفرما
القلزم
البابليون
غزة
بحر
القدس
الدولة
سيناء
مصر
النوبة
كلب بن وبرة
دومة الجندل
النفود
عبس
ذبيان
تيماء
الحجر
العلا
طيئ
فدك
خيبر
غطفان
المدينة
الصفراء
الجحفة
رابغ
سليم
القارة
خليص
عسفان
ذات عرق
القردة
جدة
الشعيبة
مكة
ثقيف
الطائف
هلال بن عامر
عامر بن صعصعة
خزيمة
السرين
الليث
خثعم
حباشة
القنفذة
جديلة
وجرة
أوطاس
نجران
اللحية
الحديدة
المفازة
زبيد
المخا
الوجه
أم لج
تبوك
الحوراء
حسبا
النبك
٣٠
٣٥
٤٠
١٥

هوامش الباب الرابع

(1) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - د. جواد علي - ص (590)

(2)

(3) الملل والنحل - الشهرستاني -

(4) الملل والنحل - الشهرستاني -

(5) قصة الحضارة - وول ديورنت - المجلد 11 - ص (392)

(6) المصدر السابق - المجلد 11 - ص (396).

(7) المصدر السابق - المجلد 11 - ص (396).

(8) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - د. جواد علي - ص (514).

(9) المصدر السابق - ص (514).

(10) مخطوطات البحر الميت - حسين عمر حمادة - ص (45).

(11) الصابئة المندائيون - ليدي دراوور - ص (13).

(12) المصدر السابق - ص (14 ، 15).

(13) المصدر السابق - ص (41).

(14) المصدر السابق - ص (42).

(15) المصدر السابق - ص (170 ، 171 ، 172).

(16) المصدر السابق - ص (46).

(17) المصدر السابق - ص (70 ، 71).

(18) المصدر السابق - ص (17).

المراجع:

1 ـ الديانة الفرعونية /واليس برج/ ترجمة نهاد خياطة الطبعة الأولى ـ قبرص: سومر للدراسات، 1986

2 ـ ماقبل الفلسفة /هـ.أ. فرانكفورت، ج.أ.ويلسن/ ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ـ بغداد: مكتبة الحياة، 1960 .

3 ـ تاريخ كنيسة أنطاكية /خريستموس بابا دبولوس/ ترجمة استفانس حداد ـ بيروت: منشورات النور، 1984 .

4 ـ الميثولوجيا السورية/ وديع بشور.
الطبعة الثانية ـ بيروت: دار الفكر، 1981 .

5 ـ لغز عشتار/فراس السواح الطبعة الأولى ـ قبرص: سومر للدراسات، 1985 .

6 ـ العرب واليهود في التاريخ/ أحمد سوسة. الطبعة الرابعة ـ دمشق: العربي، 1975 .

7 ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام/ جواد علي الطبعة الأولى ـ بيرت: دار العلم للملايين، 1973 .

8 ـ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعيان/ الهذبي/ تحقيق عمر عبد السلام تدمري/ بيروت: دار الكتاب العربي، 1987 . .

9 ـ ديوان أمية بن أبي الصلت/ تحقيق عبد الحفيظ السطلي دمشق: مكتبة أطلس، 1974 .

10 ـ في الفكر الديني الجاهلي قبل الإسلام/ابراهيم الفيومي القاهرة: عالم الكتب، 1979 .

11 ـ شروح ديوان حاتم الطائي/ابراهيم الجزيني، الطبعة الأولى ـ بيروت: دار الكتاب العربي، 1968 .

12 ـ ديوان زهير بن أبي سلمى/ الإمام الشيباني القاهرة: مطبعة الكتب المصرية، 1944 .

13 ـ الشعراء الحنفاء/ أحمد جمال العمري ـ الطبعة الأولى ـ القاهرة: دار المعارف، 1981 .

14 ـ المعلقات العشر بيروت: الشركة اللبنانية للكتاب، 1969 .
15 ـ النثر في العصر الجاهلي/ هاشم صالح مناع، بيروت: دار الفكر العربي، 1993 .
16 ـ أدباء العرب/ بطرس البستاني، بيروت: دار مارون عبود، 1979 .
17 ـ كتاب الأغاني/ أبو الفرج الأصفهاني/ تحقيق علي محمد بجاوي القاهرة: الهيئة المصرية العامة، 1973 .
18 ـ في ظلال القرآن/ سيد قطب، الطبعة السابعة ـ بيروت؛ القاهرة: دار الشروق، 1987 .
19 ـ الصابئة المندائيون/ليدي دراوور/ ترجمة نعيم بدوي بغداد: مكتبة الأندلس، 1969 .
20 ـ قصة الحضارة/ وول ديورانت/ ترجمة زكي نجيب محمود وآخرين/ بيروت: دار الجيل، 1988 .
21 ـ الملل والنحل/ الشهرستاني. الطبعة الثانية ـ بيروت: دار المعرفة، 1975 .
22 ـ مخطوطات البحر الميت/ حسين عمر حمادة، الطبعة الأولى ـ عمان: دار منارات، 1982 .
23 ـ عيون التواريخ /ابن شاكر/ تحقيق حسام الدين الفرسي، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1980 .
24 ـ تاريخ الكنيسة السريانية الشرقية/ألبير أبونا بيروت: دار المشرق، 1992 .
25 ـ قصة الأدب في العصر الجاهلي/ محمد عبد النعيم الخفاجي.

الأحنــاف

منذ اعتقد الانسان أن وراء كل مَعْلول عِلّة راح يعمل على تكوين منظومة معارفه حول الحياة والكون. كان هاجسه معرفة كيفية الخلق وفهم هذا الوجود. في كل مكان وُجِد فيه بنو آدم نشأت أفكارٌ ورؤى حول القوى المسيِّرَةِ للكون. ومع تطور فكر الانسان ونمو قدرته على المحاكمة واستخدامه للمنطق كانت تتغير نظرته ومفهومه عن عملية الخلق والخالق. فمن إيمان بتعدد الآلهة الفاعلة التي تُقسّم فيما بينها السيطرة على الكون وأحداثه، إلى الإله الأعلى (رب الارباب) في بلاد الرافدين والاله الواحد عند (اخناتون) في مصر ثم إلى فلسفة الخلق والخالق عند فلاسفة اليونان.

وفي جزيرة العرب كان يُعاد التساؤل عن حقيقة الكون وخالقه وكيف يتم الاهتداء إليه. وهذا ماكان يقوم به الأحناف قبل مجيء الاسلام. كانوا يسلكون درباً آخر مغايراً لعامة الناس. كانوا يجدُّون لخلق الجسر الذي يربطهم بالمقدس ويتلهفون بلوغ الحقيقة.

وفي هذا الكتاب الذي نقدمه للقارئ، اضاءة على تلك الفئة في جزيرة العرب والتي كانت مقدمة لظهور الاسلام.

الناشر

دار الكلمة

سورية ـ دمشق ـ برامكة

